

لذة العلم

عبدالرحمن السعدي واحدٌ من هؤلاء

تأليف

د. فهد بن عبدالله بن إبراهيم آل طالب

لذة العلم

عبدالرحمن السعدي واحدٌ من هؤلاء

بسم الله الرحمن الرحيم

«وهذا الكتاب الجديد يظهر لي موضوعه كل يوم، كما يدنو الإنسان من الجبل شيئًا فشيئًا، كلما قرب منه رأى أمرًا هائلًا، ولكن ما دامت النية وجه الله فهو تعالى مرجو في العون والتيسير». «رسائل الرافعي إلى أبي رية» (ص١٢٣).

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

فإن للعلم لذة لا يعرفها إلا من ذاقها، تتابعت كلمات العلماء على وصفها تتابعا ينبيك بصدق ما يجدون، فاقرأ ذلك في سيرهم وقف على أخبارهم[1]، ومن أولئك العلماء الأفذاذ الشيخ العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ المولود في ١٢ محرم سنة ١٣٠٧هـ والمتوفى قبل طلوع فجر الخميس ٢٣ جمادى الآخرة سنة ١٣٧٦هـ، فقد جمع نفسه على العلم والتعليم، وكانا أحبَّ شيء إليه، ثم كانت له المصنفات النافعة التي نوعها تنويع المحب، وإنك لواجد في تضاعيف كتبه من ذلك ما تقر به

(١) ولتقرأ الكتاب المفيد صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل لعبدالفتاح أبو غدة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

عينك ويوقظ قلبك ويعلي همتك، وسترى الكتب المفردة في العلم وآدابه، وتقف على إشارات وإلماحات في ثنايا تفسيره للآيات وشرحه للحديث، بل تجد خطبا أفردها لهذا الشأن، وأما مراسلاته مع تلاميذه ومحبيه ففيها نبض الفؤاد والتذكير بفضل العلم والحث عليه وبيان عظيم منزلته.

ويكفي أن تقرأ في الدلالة على موضوع هذا الكتاب تفسيره لقول الله تعالى في سورة الصافات: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾﴾، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وحَذَفَ المعمول والمقامُ مقام لذة وسرور، فدل ذلك على أنهم يتساءلون بكل ما يلتذون بالتحدث به والمسائلِ التي وقع فيها النزاع والإشكال، ومن المعلوم أن لذة أهل العلم بالتساؤل عن العلم والبحث عنه فوق اللذات الجارية في أحاديث الدنيا، فلهم من هذا النوع النصيب الوافر، ويحصل لهم من

انكشاف الحقائق العلمية في الجنة ما لا يمكن التعبير عنه»[1].

هل يقول هذا إلا رجل امتلأ قلبه بمحبة العلم!

وهو يقول: «علوم الشرع والدين وما يعين عليها ويتوصل إليها به الاشتغال بها من أجل العبادات، وحصول ثمرتها من أكمل اللذات، ولا يشبهه شيء من اللذات الدنيوية، واعتبر ذلك بحال الراغبين في العلم تجد أكثر أوقاتهم مصروفة في تحصيل العلم، فيمضي الوقت الطويل وصاحبه مستغرق فيه يتمنى امتداد الزمن، وهذا عنوان اللذة، فإن المشتاق يقصر عنده الوقت الطويل»[2].

وهو يكتب إلى أحد طلابه: «أخي، كتابكم هذا وما قبله كررت فيها الاعتذار من كثرة الأسئلة وأننا نسمح بذلك، فحيث كان الأمر منك كذلك، تعين أن أفيدكم عني

---

(١) «تفسير السعدي» (ص٩٤٢).

(٢) «النصيحة الربانية» (٦/ ١١٣).

وعنكم، أما من جهتي فأنا مسرور جدًّا بكثرة أسئلتكم، وممنون منها لأمور: أولا: ليس عندي أرغب من البحث في المسائل الدينية والتعلم والتعليم مشافهة وكتابة...»[1].

هذا وقد كان مجال البحث: مؤلفات الشيخ المجموعة كاملة[2]، قرأتها وأعدت قراءة بعضها واستخلصت منها ما هو في «لذة العلم»، والشغف والتعلق به وما إلى ذلك، كما رجعت إلى بعض ما كتب عن الشيخ من مواقف وذكريات فأثبت منها ما له تعلق بالموضوع، وبوبت ذلك كله أبوابا، وقرنت الخبر بمثله، والكلمة بأختها، ثم تركت بعد ذلك نصوص الشيخ تحدثك وتناجيك، مكتفيا بالعنوان لكل فائدة.

---

(١) «الرسائل» (٢٥/ ٢٥٤).

(٢) وكان الاعتماد على الطبعة الأولى عام ١٤٣٢هـ ورجعت فيما زيد بعد ذلك على هذه الطبعة إلى «تطبيق مؤلفات السعدي»، أما التفسير بخصوصه فكان الاعتماد على ط دار ابن الجوزي الأولى عام ١٤٣٧هـ.

كما قدمت للشيخ بترجمة موجزة[1] وجعلتها في تواريخ مهمة وسميتها: خط الزمن، وفي ضمنها ذكر ترتيب أشهر مؤلفاته مبتدئًا بأقدمها وفيه لطائف.

وبعدُ فالقصد من هذا المجموع بعث الهمة وحسن الاقتداء، وتكثير الداعين، وامتداد الأجور، «اللهم لا تعقنا عن العلم بعائق، ولا تمنعنا بمانع، واختم لنا بخير، واجعل عواقب أمورنا كلها إلى خير، واكفنا هموم الدنيا وأحزان الآخرة»[2].



(١) تنظر ترجمة وافية للسعدي في مقدمة مجموع مؤلفاته، وفي غيرها. كما ينظر بحث لطيف عنوانه «الرسائل العلمية في جهود الشيخ العلامة السعدي في الجامعات السعودية - دراسة وصفية» للأستاذ الدكتور عارف الركابي، فقد ذكر فيه (٢١) رسالة جامعية في العقيدة والتفسير والفقه والدعوة.

(٢) «التدوين في أخبار قزوين» (٣/ ٣٤٨).

خط الزمن

١٣٠٧	ولادته في الثاني عشر من محرم.
١٣١١	وفاة والدته: فاطمة العبدالله العثيمين.
١٣١٤	وفاة والده: ناصر الحمد السعدي، وكان طالب علم وإمام مسجد.
١٣٣١	ولادة أكبر أبنائه: عبدالله، وبه كان يكنى. القواعد الفقهية المنظومة وشرحها في ١٨ ذو القعدة.
١٣٣٣	منظومة في أحكام الفقه أزيد من ٤٠٠ بيت. في ٢٦ شوال (قال ابن عقيل: والظاهر أنه نظمها في أيام شبابه قبل أن يتجه إلى الأخذ بما قوي دليله).
١٣٣٤	التعليق وكشف النقاب على نظم قواعد الإعراب في ١٠ ربيع أول. مختصر في أصول الفقه في ١٩ جمادى الأولى.
١٣٣٥	تحفة أهل الطلب في تجريد أصول قواعد ابن رجب في ١٤ جمادى الآخرة.

١٣٣٩	تيسير الكريم الواحد في شرح عقد الفرائد وكنز الفوائد، وهو شرح لمنظومة ابن عبدالقوي بكتاب الإنصاف للمرداوي فرغ منه في خامس جمادى الأولى. حقق في ٤٥ بحثا تكميليا في المعهد العالي للقضاء.
١٣٤٠	حصل على إجازة في رواية الكتب الستة والمسند وغيرها من شيخه علي أبو وادي عن السيد محمد نذير حسين.
١٣٤١	حصل على إجازة في رواية الكتب الستة وغيرها من شيخه إبراهيم بن عيسى.
١٣٤٣	رسالة في الحث على اجتماع كلمة المسلمين في ٦ جمادى. مجموع الفوائد واقتناص الأوابد في ٣ ذي الحجة.
١٣٤٤	تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان في ربيع الأول. التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية في ٢٣ شعبان ثم اختصره بتاريخ ٣/ ٤/ ١٣٦٧هـ.
١٣٤٥	منهج الحق منظومة في العقيدة والأخلاق (٦٥ بيتا).
١٣٤٧	المواهب الربانية من الآيات القرآنية. فوائد فتح الله بها في شهر رمضان.

١٣٤٩	التعليقات على عمدة الأحكام في ٢٢ ذو القعدة.
١٣٥٥	المختارات الجلية من المسائل الفقهية في ٣ صفر. صفوة أصول الفقه المنتخبة من مختصر التحرير في ١٠ صفر.
١٣٥٧	فوائد من كتب ابن تيمية وتلميذه ابن القيم في رمضان.
١٣٥٨	الإرشاد إلى معرفة الأحكام (إرشاد أولي البصائر والألباب لنيل الفقه بأقرب الطرق وأيسر الأسباب) في ١٧ رمضان. (أثنى عليه في رسائله، وقال: وصار أحسن تصنيف وضعته في هذا الباب). تعليقات على صفوة أصول الفقه في ٢٦ محرم.
١٣٥٩	الانتهاء من بناء المكتبة وترتيب مدرس فيها. يأجوج ومأجوج (استدعاه الملك عبدالعزيز من أجله إلى الرياض وطلب منه ترك الحديث في هذا الشأن). منهج السالكين وتوضيح الفقه في الدين. رسالة في حكم إجزاء سبع البدنة والبقرة عن الشاة في الإهداء وغيره.

١٣٦٠	ذهاب الشيخ إلى الرياض في رجب للقاء الملك عبدالعزيز والمشايخ.
١٣٦٢	الانتهاء من عمارة جامع عنيزة، وفيه قال: جد بالرضا واعط المنى * * مـن ساعدوا في ذا البنا تـاريخـه حيـن انتهـى * * قـول المنيب: **اغفر لنا** والشهـر في شوال يـا * * ربـي تـقبـل سعينـا
١٣٦٤	الدرة المختصرة في محاسن الدين الإسلامي في جمادى الأولى. المناظرات الفقهية في ٨ جمادى الآخرة.
١٣٦٥	مجموع الخطب في المواضيع النافعة في ٢٢ رجب. (وله بعد ذلك مجموعتا خطب إحداها الفواكه الشهية). القواعد الحسان لتفسير القرآن في ٦ شوال.
١٣٦٦	تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله في ١٠ ربيع أول. أصول عظيمة من قواعد الإسلام في ١ جمادى الآخرة.

١٣٦٧	وجوب التعاون بين المسلمين في ٢٠ رمضان.
١٣٦٨	الأحاديث المختارة في الأصول والأحكام والآداب وغيرها في ٢٠ جمادى الأولى. تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن في ٣ شوال.
١٣٦٩	التنبيهات اللطيفة على ما احتوت عليه العقيدة الواسطية من المباحث المنيفة في ٨ جمادى الأولى.
١٣٧٠	- البراهين العقلية على وحدانية الرب ووجوه كماله في ٢٠ جمادى الآخرة. - الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة في العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة في ٢٠ رجب. - فتنة الدجال في ٧ شعبان. - طريق الوصول إلى العلم المأمول بمعرفة القواعد والضوابط والأصول في ١٧ شعبان. (أكثر من ألف قاعدة من كلام ابن تيمية وابن القيم وذكر في مقدمته أنه لم يطلع على كتاب الاستقامة لابن تيمية).

١٣٧١	بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار في العاشر من شعبان. (شرح ٩٩ حديثا).
١٣٧٢	الأدلة القواطع البراهين في إبطال أصول الملحدين في ١٤ رجب.
١٣٧٣	الوسائل المفيدة للحياة السعيدة (كتبه في رحلته العلاجية إلى لبنان بعد اطلاعه على كتاب: دع القلق وابدأ الحياة لدايل كارنيجي).
١٣٧٤	نور البصائر والألباب في أحكام العبادات والمعاملات والحقوق والآداب في ٢٧ ربيع الآخر. التوضيح والبيان لشجرة الإيمان في ٨ ذي الحجة.
١٣٧٥	الدلائل القرآنية في أن العلوم والأعمال النافعة العصرية داخلة في الدين الإسلامي في ١٠ محرم. فوائد مستنبطة من سورة يوسف في صفر. القواعد والأصول الجامعة والفروق والتقاسيم البديعة النافعة في ٢٢ ربيع أول. الدين الصحيح يحل جميع المشاكل في ٥ ربيع الآخر.

١٣٧٦	الدرة البهية شرح القصيدة التائية في القدر لابن تيمية في ٣ ربيع الأول. حكم شرب الدخان في ربيع الأول. وفاته رَحِمَهُ ٱللَّهُ قبل طلوع فجر الخميس ٢٣ جمادى الآخرة.

وهناك بعض الكتب والرسائل لم يؤرخ لها، مثل: كتاب «القول السديد في مقاصد التوحيد»، وقد أشار في بعض الرسائل المؤرخة في ٣٠ ذي الحجة ١٣٦٧ أن الكتاب في المطبعة، وكذلك كتاب «فتح الرحيم الملك العلام في علم العقائد والأخلاق والأحكام المستنبطة من القرآن»، وإن كان كتبه بعد التفسير كما أشار في مقدمته.





ذكريات

تقول إحدى أخواته: إن الجد ناصر إذا قال للشيخ الوالد عبدالرحمن: سوف أذهب بك إلى الدراسة (المطوع في ذلك الوقت)، جلس الشيخ يبكي ويمتنع عن الذهاب، فيرد الجد ناصر ويقول: هذا الولد إذا أطرين (ذكرنا) له الدراسة قعد يبكي، لكن الله المدبر!

فأصلحه الله فحفظ القرآن الكريم ولم يتجاوز الثانية عشرة من عمره، واشتغل بطلب العلم، فقرأ التوحيد والتفسير والحديث والمصطلح والفقه وأصوله على يدي عدد غير قليل من الشيوخ، وأجازه شيوخه بمروياتهم.

ولما بلغ الشيخ من العمر ثلاثا وعشرين سنة جلس للتدريس، وفي عام ١٣٥٠هـ انتهت إليه المعرفة التامة ورئاسة العلم في القصيم.

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد وقف نفسه على العلم والعلماء، فله محاضرات ودروس يلقيها بالمدارس الحكومية مرة أو مرتين في الأسبوع، فيذهب الضحى ليلقي المحاضرات أو الدروس على التلاميذ، وكان لا يتقاضى راتبا مقابل هذه الدروس[1].



(١) «مواقف اجتماعية من حياة الشيخ» (ص٢١).

وكان من طريف ما يصنعه الشيخ ويدل على حرصه على دينه أنه كان إذا ذهب إجابة لدعوة، يُسِرُّ إلى بعض أصدقائه من طلبة العلم من الذين يرافقونه في الدعوات العامة ومنهم زامل الصالح السليم فيقول له: إذا سمعت الحاضرين أو المدعوين يتكلمون في الناس وأعراضهم أو يتكلمون بكلام فارغ فاسألني سؤالا أو اذكر مسألة شرعية أو علمية، وسوف أقوم بالإجابة عن المسألة، وكان الناس يقدرون المشايخ بصفة عامة، والشيخ بصفة خاصة، فإذا تكلم الشيخ الوالد يسكت الجميع وينصتون للوالد ويسمعون كلامه، وبهذا يتحول المجلس من مجلس لغو وغيبة وكلام لا فائدة منه إلى مجلس علم وفتوى وفائدة، فيعم نفعه الجميع في دينهم ودنياهم دون إحراج أحد، وهذا من حكمته رَحِمَهُ ٱللَّهُ [(١)].



(١) «مواقف اجتماعية من حياة الشيخ» (ص٤١).

ومما يشبه هذا

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سبحان من فاوت بين أهل اليقظة في قوة السير وضعفه، وفي استغراق جميع الأوقات في العبادة وعدمه، ومنهم من يكون سيره مستقيما في ليله ونهاره، ومع ذلك يتخير من الأعمال أفضلها وأكملها، ولا ينزل من فاضلها إلى مفضولها إلا لمصلحة تقترن بالمفضول توجب أن يساوي العمل الفاضل ويزيد عليه، وقد يكون المباح في حق هذا عبادة لكمال إخلاصه ونيته بذلك المباح أن يجم به نفسه ويتقوى به على الخير، فتراه يتنقل في مقامات العبودية في كل وقت بما يناسبه ويليق به، لا فرق عنده بين العبادة المتعلقة بحقوق الله المحضة، وبين العبادة المتعلقة بحقوق الخلق على اختلاف مراتبهم وأحوالهم.

ولقد ذكرت في هذا المقام كلاما لبعض الشيوخ لما رأى

كثرة المجتمعين ببعض أصحابه قال مؤدبا له مقوما: يا مناخ البطالين، يريد أنهم يقطعون عليه وقته عن الخير، وكلاما أيضا للشيخ أبي الفرج ابن الجوزي في سياق الخبر عن نفسه بحفظه الوقت وأنه رأى مما لابد منه أن ينتابه الناس للزيارة وأنه لما رأى أن هذه الحال تقطع عليه وقته أعد للوقت الذي يجتمعون فيه إليه أشياء من أمور الخير لا تمنع من زيارتهم ولا تقطع عليه وقته، مثل تقطيع الأوراق وتصليح المداد وبري الأقلام التي لابد منها لتصنيف العلوم النافعة، وهي لا تمنع الحديث مع الناس والاستئناس بهم.

فقلت: سبحان مَنْ منَّ على هؤلاء السادة بحفظ أوقاتهم، وبقوة العزيمة والنشاط على الخير، ولكن كل كمال يقبل التكميل والرقي إلى حالة أرفع منه، فلو أن هؤلاء الأجلاء الفضلاء جعلوا اجتماعهم مع الناس

للزيارة والدعوات وغيرها من المجالس العادية فرصة يغتنمون فيها إرشاد من اجتمع بهم إلى الخير والبحث في العلوم النافعة والأخلاق الجميلة والتذكر لآلاء الله ونعمه ونحو ذلك من المواضيع المناسبة لذلك الوقت ولذلك الاجتماع بحسب أحوال الناس وطبقاتهم، وأنهم وطنوا أنفسهم لهذا الأمر، وتوسلوا بالعادات إلى العبادات، وبرغبتهم إلى الاجتماع بهم إلى انتهاز الفرصة في إرشادهم لحصّلوا بذلك خيرا كثيرا، وربما زادتهم هذه الاجتماعات مقامات عالية وأحوالا سامية، مع ما في ذلك من النفع العظيم للعباد؛ لأنه ليس من شروط نفع العالم أن يرشد فقط المستعدين لطلب العلم من المتعلمين، بل يكون مستعدا لإرشاد الخلق أجمعين بحسب أحوالهم واستعدادهم وعلمهم وجهلهم وإقبالهم وإعراضهم، وأن يعامل كل حالة يما يليق بها من الدعوة إلى الخير والتسبب

لفعله وتعطيل الشر وتقليله، وأن يستعين الله على ذلك.

فمن كانت هذه حاله لم يتبرم باجتماعه بالخلق مهما كان حريصا على حفظ وقته؛ لأن التبرم والتثاقل إنما هو للحالة التي يراها العبد ضررا عليه ومفوتة لمصالحه، والله الموفق وحده لا شريك له»[1].



(١) «الفتاوى السعدية» (٢٤/ ٣٩).

يا وليدي

«في يوم من الأيام كان الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ جالسًا يتعشى مع الأخ أحمد العبدالرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهما يتعشيان طُرق باب القهوة، فذهب الأخ أحمد ليفتح الباب فوجد رجلًا أجنبيًّا -من غير أهل عنيزة- فقال الرجل للأخ أحمد: الشيخ موجود؟ أبي -أريد- الشيخ.

قال الأخ أحمد: الشيخ غير موجود، سوف يأتي بعد شوي -قليل-.

فذهب الرجل السائل، ورجع الأخ أحمد، وجلس يكمل عشاه مع الوالد، فقال له الوالد: من عند الباب؟ قال الأخ أحمد: أجنبي يسأل عنك وقلت له انك غير موجود بالبيت، وسوف يأتي بعد قليل -قصد الأخ أحمد أنه ما يزعج الوالد ويمنعه من عشاه-.

قال الوالد للأخ أحمد معنفًا: ليش -لماذا- تعمل هذا العمل؟ وليش تقول اني غير موجود؟ يا وليدي أحب لي أن أقوم وأجيب السائل من جلستي على العشاء»[(١)].



(١) «مواقف اجتماعية من حياة الشيخ» (ص٦٩).

في أي حالة كان؟

في شرح حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: سأل رجل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو على المنبر: ما ترى في صلاة الليل؟

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفيه أنه ينبغي إجابة السائل في أي حالة كان، خصوصًا إذا حضره أحد لأجل أن ينتفع السائل والسامع ما لم يتبين أنه متعنت، وأحد التفسيرين في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ١٠﴾ أنه سائل العلم، والصحيح أنه عام لسائل العلم والمال، وسائل العلم أولى بالدخول»[1].



(١) «التعليقات على عمدة الأحكام» (٤/ ١٢٢).

١٠٠ ريال

يقول تلميذه الشيخ محمد بن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«كان الشيخ عبدالرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ متواضعًا للطلبة، يمازحهم ويهدي إليهم أشياء ليست بذات قيمة جلبًا لقلوبهم، وكان أيضًا ربما يجعل الجعل على حفظ متن من المتون، كما جعل على حفظ بلوغ المرام ١٠٠ ريال، وهي في ذلك الوقت تساوي ١٠٠ ألف تقريبًا في الوقت الحالي»[١].



(١) مسمع صوتي على اليوتيوب: (https://youtu.be/mQ١٢x٤٤d٩rQ).

يقول الشيخ عبدالرزاق البدر حفظه الله:

«وأذكر في هذا المقام طريفة لطيفة سمعتها من العلامة الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يقول: كنت أيام الطلب جالسًا في درس لشيخنا الشيخ عبدالرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكنا في فناء المسجد في الساحة التي في مؤخر المسجد، وكان الشيخ يشرح الدرس وأنا أتابعه فمرَّت طيور في السماء فشدتني فأخذت أنظر إليها، فقال لي الشيخ عبدالرحمن السعدي:

يا محمد، صيد العلم خير من صيد الطير»[١].



(١) مسمع صوتي على اليوتيوب: (https://youtu.be/GKyJAkmZKf٤).

يقول الشيخ صالح العصيمي حفظه الله: «هذه فائدة لا تجدها في كتاب، وهي أن أول من ألف شرحًا للعقيدة الواسطية من علماء نجد هو الشيخ عبدالرحمن السعدي في كتابه «التنبيهات اللطيفة لما اشتملت عليه الواسطية من المباحث المنيفة».

أخبرني شيخنا الشيخ علي الحمد الصالحي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن شيخه ابن سعدي عهد إليه تدريس الطلبة المبتدئين، وأن يدرسهم العقيدة الواسطية، فاعتذر إليه بأنه لا قدرة له عليها، فأمره بالجلوس، وأن يستعين بالله وسيعينه الله.

قال لي شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فعمدت إلى دفتر وكتبت عليه هذا شرح الواسطية، وعمدت إلى باب في بيت الشيخ، لا يدخل ولا يخرج منه إلا الشيخ عبدالرحمن رَحِمَهُ ٱللَّهُ،

فأدخلته من تحته، وبعد ثلاثة أيام جاءني الشيخ عبدالرحمن وقال لي: هذا قرى ضيفك يا علي، فإذا هو كتاب «التنبيهات اللطيفة»، فكان حسن أدبه وتصرفه سببًا في الخير وكتابة الشيخ لهذا الكتاب، ثم طبعه تلميذه بعد ذلك، وصار كتابًا مشهورًا منشورًا»[١].



(١) مسمع صوتي على اليوتيوب: (https://youtu.be/y٨V_wxc١Khw)



حقيقة العلم

«لقد غلط كثير من الناس في مسمى العلم الصحيح الذي ينبغي ويتعين طلبه والسعي إليه على قولين متطرفين:

فالأول قول من قصر العلم على بعض مسمى العلم الشرعي المتعلق بإصلاح العقائد والأخلاق والعبادات، دون ما دل عليه الكتاب والسنة أن العلم يشمل علوم الشرع ووسائلها وعلوم الكون، وهذا قول طائفة ممن لم تتبصر بالشريعة تبصرًا صحيحًا، ولكنهم الآن بدأوا يتحللون من هذا الإطلاق لما رأوا من المصالح العظيمة في علوم الكون، وحين تنبه كثير منهم لدلالات نصوص الدين عليه.

والقول الثاني: قول من قصر العلم على العلوم العصرية التي هي بعض علوم الكون، وهذا القول إنما نشأ من

انحرافهم عن الدين وعلومه وأخلاقه، وهذا غلط عظيم حيث جعلوا الوسائل هي المقاصد، وحيث نفوا من العلوم الصحيحة والحقائق النافعة ما لا تنسب إليه العلوم العصرية بوجه من الوجه، غرَّهم ما ترتب عليها من الصناعات والمخترعات، وهؤلاء هم المرادون بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٨٣﴾، فهم فرحوا بعلومهم واستكبروا بها واحتقروا علوم الرسل حتى نزل بهم ما كانوا به يستهزؤون من الحق، ونزل بهم العذاب الذي وعد به من كذب الرسل، عذبوا في الدنيا بالختم على قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم وعموا عن الحق ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ١٢٧﴾، ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ٣٤﴾.

أما مدلول العلم النافع ومسماه الذي دل عليه الكتاب

والسنة فهو كل علم أوصل إلى المطالب العالية وأثمر الأمور النافعة، لا فرق بين ما تعلق بالدنيا أو بالآخرة، فكل ما هدى إلى السبيل ورقَّى العقائد والأخلاق والأعمال فهو من العلم»[1].



(١) «الدين الصحيح يحل جميع المشاكل» (٢٣/ ٤٢٤).

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ الآية.

«فيها فوائد كثيرة... **ومنها**: أنه كما أنه من العلم النافع تعليم الأمور الدينية المتعلقة بالعبادات، فمنه أيضا تعليم الأمور الدنيوية المتعلقة بالمعاملات، فإن الله تعالى حفظ على العباد أمور دينهم ودنياهم، وكتابه العظيم فيه تبيان لكل شيء»[1].

«قوله تعالى: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ الآية، فيها فوائد كثيرة:

«منها: أن تعليم الله لعباده العلوم التي يدركون بها المعاش ويتوسلون بها إلى المنافع الدنيوية من نعمه

(١) «التفسير» (ص١٣٢)، وينظر: «تيسير اللطيف المنان» (٣/ ١٢٤).

العظيمة، فإنه امتن على العباد بما يعلمون الجوارح الأسبابَ التي تحصل لهم بها الصيد حتى يكون ما تدركه الجوارح بمنزلة ما باشروه من الأعمال؛ لأنها من أعمالهم، فكل علم علمه الله الإنسان يدرك به منافعه الدينية والدنيوية فإنه من نعمه...

ومنها: أن الاشتغال بالعلوم التي تتسهل بها الأسباب الدنيوية محبوب[1] لله، وهو مما امتن الله به على عباده، فكل طريق يوصل إلى المنافع الدنيوية أو يسهلها فإنه من هذا الباب»[2].



(١) في الأصل: «محبوبة».

(٢) «مجموع الفوائد واقتناص الأوابد» (٢١/ ٨٧).

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾.

«ويستدل بهذه الآية الكريمة على أن علوم العربية الموصلة إلى تبيين كلام الله وكلام رسوله أمور مطلوبة محبوبة لله؛ لأنه لا يتم معرفة ما أنزل على رسوله إلا بها»[(١)].



(١) «التفسير» (ص٥٣٩).

وعلمه التأويل

«دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل**». يظن كثير من الناس أنهما مترادفان معناهما واحد، وليس الأمر كذلك، فإن الفقه في الدين: التفقه في أصوله وفروعه وأحكامه المتنوعة ومعرفة الشرائع الكلية، وأما معرفة التأويل فهي أخص من ذلك، فهي التمكن من إدخال الوقائع والجزئيات والمعينات في الشرعيات الكلية وتطبيقها عليها.

فإذا أخبر الله ورسوله بخبر عن وقوع بعض الحوادث فالفقه في الدين معرفة ذلك واعتقاد مدلوله، وعلم التأويل إذا وقع ذلك الحادث تمكن العالم من إدخاله في ذلك الخبر وعلم أنه هو المراد، فيزداد بذلك علمًا وإيمانًا، وكذلك إذا حكم الله ورسوله بحكم أمر أو نهي أو إباحة فالفقه في الدين هو معرفة ذلك الحكم ومعرفة المراد منه،

والتأويل تطبيق الجزئيات والأعيان على الكليات ومعرفة تفاصيل الأعيان وأنها مراد الله ورسوله بذلك الحكم.

فكم من فقيه في الدين ولكنه يخفى عليه إدخال كثير من الحوادث والمعينات في الأحكام الكلية ولا يشعر بها؟!

ولهذا ينبغي للمعلم والواعظ أن ينبه على الوقائع والحوادث والمعينات، وأنها هي المراد وهي داخلة في ذلك الأمر أو النهي أو الإباحة أو الخبر، فما أعظم نفع ذلك!

وهذا التطبيق أيضا يقوي تلك المعرفة الكلية، فكل منهما يمد الآخر، الحوادث والوقائع لابد أن ترجع وتربط بالكليات، والكليات لا تتضح تماما إلا بالتفصيل وتعيين الجزئيات»[1].



---

(١) «مجموع الفوائد واقتناص الأوابد» (٢١/ ١٩٣).

العلم المطلوب

«المطلوب من العلم: تصور مسائله الكلية والجزئية، والاستدلال عليها بالدلائل الموصلة إلى العلم بقدر الإمكان، فالعلم مسائل ودلائل، والله يقول الحق في خبره وحكمه، وهو يهدي السبيل في آياته وبراهينه وأدلته وبيناته الواضحة، ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

فأعظم الحق وأصدقه وأنفعه: ما قاله الله ورسوله وحكم به الله ورسوله، وأوضح الأدلة والبراهين ما نبه الله عليه ورسوله، والكليات من المسائل والدلائل تحفظ الجزئيات وتجمعها وتكون أساسا وأصلا، والجزئيات تفصل الكليات وتوضحها، فمتى كان صاحب العلم متمكنًا من الأحكام الكلية وتصويرها وتقريرها ومن التمثيل بالجزئيات فقد تم علمه، ومتى قصر

فيهما أو في أحدهما حصل له من القصور والجهل بحسب ما قصر فيه، فمستقل ومستكثر، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم»[(١)].



(١) «مجموع الفوائد واقتناص الأوابد» (٢١/ ٨٣).

«تعوذ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من علم لا ينفع، وذلك أمور:

منها: العلوم الضارة ضررًا محضًا، أو شرها أعظم من خيرها، كعلوم السحر وتعلم الباطل بغير بصيرة بالحق.

ومنها: الاشتغال بالعلوم التي تشغل العبد عن الأمور النافعة حتى المباحة.

ومنها: العلم الشرعي الذي لا يعمل به صاحبه، يعرف الخير فيتركه ويعرف الشر فيقتحمه.

ومنها: الاشتغال بالعلوم الطبيعية إذا أعرض صاحبها عن العلوم الدينية، فإن الاقتصار عليها يوجب لصاحبها تيها وكبرا يتكبر به على الحق علمًا وعملًا، كما هو مشاهد ممن يشتغل بالعلوم العصرية المحضة ويزهد في علوم الدين.

أما العلوم النافعة: فهي علوم الدين وما أعان عليها من

علوم العربية بأنواعها، وما فيه إصلاح للدين والدنيا والأحوال والأخلاق بشرط أن يكون الدين فيها هو الأصل وغيره تبعا له ومعينا عليه»[1].



(١) «مجموع الفوائد واقتناص الأوابد» (٢١/ ٥٢).

عنوان اللذة

«واعلم يا أخي أن الدين نوعان: أحدهما أعمال وأحوال وأخلاق دينية ودنيوية، وكما ذكرنا أنه لا سبيل إلى حصول الحياة الطيبة إلا بالدين، والثاني: علوم ومعارف نافعة، وهي علوم الشرع والدين، وما يعين عليها ويتوصل إليها به، فالاشتغال بها من أجل العبادات، وحصول ثمرتها من أكمل اللذات، ولا يشبهه شيء من اللذات الدنيوية.

واعتبر ذلك بحال الراغبين في العلم تجد أكثر أوقاتهم مصروفة في تحصيل العلم، فيمضي الوقت الطويل وصاحبه مستغرق فيه يتمنى امتداد الزمن، وهذا عنوان اللذة، فإن المشتاق يقصر عنده الوقت الطويل، ومن ضاق صدره بشيء يطول عليه الوقت القصير.

وذلك أن صاحب العلم في كل وقت مستفيد علوما يزداد بها إيمانه وتكمل بها أخلاقه، والمتصفح للكتب النافعة لا

يزال يعرض على ذهنه عقول الأولين والآخرين ومعارفهم وأحوالهم الحميدة وضدها، ففي ذلك معتبر لأولي الألباب، فكم من قصة تمر عليك في الكتب تكتسب بها عقلا جديدا، وتسليك عند المصائب بما جرى على الفضلاء، وكيف تلقوها بالرضا والتسليم، واغتنموا الأجر من العليم الحكيم، والعلم يعرفك طرقا تدرك بها المطلوب، وتدفع بها المكاره والمضار»[(١)].



(١) «النصيحة الربانية» (٦/ ١١٣).

هل من طالب علم فيعان عليه؟

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٧﴾.

«أي: ولقد يسرنا وسهلنا هذا القرآن الكريم ألفاظه للحفظ والأداء ومعانيه للفهم والعلم، لأنه أحسن الكلام لفظا، وأصدقه معنى، وأبينه تفسيرًا، فكل من أقبل عليه يسر الله عليه مطلوبه غاية التيسير، وسهله عليه، والذكر شامل لكل ما يتذكر به العاملون من الحلال والحرام، وأحكام الأمر والنهي، وأحكام الجزاء والمواعظ والعبر، والعقائد النافعة والأخبار الصادقة، ولهذا كان علم القرآن حفظا وتفسيرا أسهل العلوم وأجلها على الإطلاق، وهو العلم النافع الذي إذا طلبه العبد أعين عليه، قال بعض السلف عند هذه الآية: هل من طالب علم فيعان عليه؟ ولهذا يدعو الله عباده إلى الإقبال عليه والتذكر بقوله: ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٧﴾»[(١)].



(١) «التفسير» (ص١١١٨).

«القاعدة الحادية عشرة: كما أن المفسر للقرآن يراعي ما دلت عليه ألفاظه مطابقة وما دخل في ضمنها فعليه أن يراعي لوازم تلك المعاني وما تستدعيه من المعاني التي لم يصرح اللفظ بذكرها ... وبهذا بعينه نستدل على وجوب طلب العلم وأنه فرض عين في كل أمر يحتاجه العبد، فإن الله أمرنا بأوامر كثيرة ونهانا عن أمور كثيرة، ومن المعلوم أن امتثال أمره واجتناب نهيه يتوقف على معرفة المأمور به والمنهي عنه وعلمه، فكيف يتصور أن يمتثل الجاهل الأمر الذي لا يعرفه أو يتجنب الأمر الذي لا يعرفه؟

وكذلك أمره لعباده أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، ويتوقف ذلك على العلم بالمعروف والمنكر ليأمروا بهذا وينهوا عن هذا، فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وما لا يحصل ترك المنهي عنه إلا به فهو واجب،

فالعلم بالإيمان والعمل الصالح متقدم على القيام به، والعلم بضد ذلك متقدم على تركه؛ لاستحالة ترك ما لا يعرفه العبد قصدًا وتقربًا وتعبدًا»[1].



(١) «القواعد الحسان لتفسير القرآن» (٣/ ٣٥٥).

«القاعدة الثانية: الوسائل لها أحكام المقاصد ... ومن فروعها: وجوب تعلم العلوم النافعة، وهي قسمان:

علوم تعلمها فرض عين، وهي ما يضطر إليه الإنسان في دينه وعباداته ومعاملاته، كل أحد بحسبه.

والثاني: فرض كفاية، وهو ما زاد على ذلك بحيث يحتاجه العموم، فما اضطر إليه الإنسان بعينه تعين عليه، وما لم يضطر إليه بنفسه لكن الناس محتاجون إليه فرض كفاية، وفرض الكفاية إذا قام به من يكفي سقط عن غيره، وإذا لم يقم به وجب على الكل»[١].



(١) «القواعد والأصول الجامعة» (٧/ ١٢).



هذا الطريق

من أبوابها

قال تعالى: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾.

«ويستفاد من إشارة الآية: أنه ينبغي في كل أمر من الأمور أن يأتيه الإنسان من الطريق السهل القريب الذي قد جعل له موصلا، فالآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ينبغي أن ينظر في حالة المأمور ويستعمل معه الرفق والسياسة التي بها يحصل المقصود أو بعضه، والمتعلم والمعلم ينبغي أن يسلك أقرب طريق وأسهله يحصل به مقصوده، وهكذا كل من حاول أمرا من الأمور وأتاه من أبوابه وثابر عليه فلا بد أن يحصل له المقصود بعون الملك المعبود»[١].



(١) «التفسير» (ص٩١).

طريقة تقريبية مقترحة

«الأمور النافعة في الدين ترجع إلى أمرين: العلم النافع والعمل الصالح.

أما العلم النافع فهو العلم المزكي للقلوب والأرواح، المثمر لسعادة الدارين، وهو ما جاء به الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حديث وتفسير وفقه وما يعين على ذلك من علوم العربية بحسب حالة الوقت والموضع الذي فيه الإنسان، وتعيين ذلك يختلف باختلاف الأحوال.

والحالة التقريبية: أن يجتهد طالب العلم في حفظ مختصر من مختصرات الفن الذي يشتغل فيه، فإن تعذر أو تعسر عليه حفظه لفظًا فليكرره كثيرًا متدبرًا لمعانيه حتى ترسخ معانيه في قلبه، ثم تكون باقي كتب هذا الفن كالتفسير والتوضيح والتفريع لذلك الأصل الذي عرفه

وأدركه، فإن الإنسان إذا حفظ الأصول وصار له ملكة تامة في معرفتها هانت عليه كتب الفن كلها صغارها وكبارها، ومن ضيع الأصول حرم الوصول، فمن حرص على هذا الذي ذكرناه واستعان بالله أعانه الله وبارك له في علمه وطريقه الذي سلكه.

ومن سلك في طلب العلم غير هذه الطريقة النافعة فاتت عليه الأوقات ولم يدرك إلا العناء كما هو معروف بالتجربة، والواقع يشهد به، فإن يسر الله له معلما يحسن طريقة التعليم ومسالك التفهيم تم له السبب الموصل إلى العلم»[1].



---

(١) «بهجة قلوب الأبرار» (٥/ ٣٣) شرح حديث: «**احرص على ما ينفعك**».

«اعلم أنه يتعين على طالب العلم أن يسعى بجهده لتحصيل ما يحتاجه من الفهم وتشتد إليه ضرورته، مبتدئا بالأهم فالأهم، قاصدا بذلك وجه الله، يعتقد أن درسه ومدارسته وبَحثه ومباحثته ونظره ومناظرته وتعلمه وتعليمه طريق يوصله إلى ربه، ويحتسب به ثوابه، ويخرج به نفسه وغيره من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ومن تبعة الإعراض عن الواجب والمستحب، إلى القيام بهما، وأن يعلم أن العلم المشروع هو ميراث عن نبيه محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فليستكثر منه لتتحقق الوراثة النبوية.

وأن يجتهد ويحرص في كل مسألة من مسائل الدين والأحكام على تصورها وتحريرها وتفصيلها وحدها وتفسيرها، ثم يسعى في إدراك ما بنيت عليه من الدليل والتعليل الراجح لمعاني الكتاب والسنة وأصولهما، فإن

العلم الحقيقي هو الجمع بين هذين الأمرين، والتحقق بهذين الأصلين، بحسب القدرة والاستطاعة، فإذا فعل ذلك وقصد ترجيح ما قام عليه الدليل من الأقوال المختلفة، فقد وفق بسلوك طريق العلم الذي من سلكه سلك الله به طريقا إلى الجنة، وكان سعيه مشكورًا وخطؤه مغفورًا، وثوابه مضاعفًا وأجره موفورًا، والله الموفق للخير»[(١)].



(١) «المختارات الجلية» (٨/ ١٩٩).

من دعا بشيء تسبب إليه

قال تعالى: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤﴾.

«... وأنهم يدعون الله تعالى بأكمل الدعاء في الدعاء الذي ينتفعون به وينتفع به من يتعلق بهم وينتفع به المسلمون من صلاح أزواجهم وذرياتهم، ومن لوازم ذلك: سعيهم في تعليمهم ووعظهم ونصحهم؛ لأن من حرص على شيء ودعا الله فيه لابد أن يكون متسببًا فيه، وأنهم دعوا الله ببلوغ أعلى الدرجات الممكنة لهم وهي درجة الإمامة والصديقية، فلله ما أعلى هذه الصفات، وأرفع هذه الهمم، وأجلَّ هذه المطالب»[1].



(١) «التفسير» (ص٧٧٩).

سؤال الله الصواب

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾.

«وفيه تنبيه لطيف على أن الناظر في العلم عند الحاجة إلى العمل أو التكلم به إذا لم يترجح عنده أحد القولين فإنه يستهدي ربه ويسأله أن يهديه إلى الصواب من القولين بعد أن يقصد الحق بقلبه ويبحث عنه، فإن الله لا يخيب من هذه حاله»[١].



(١) «تيسير اللطيف المنان» (٣/ ٢١٨)، «التفسير» (ص٨٢٦).

«فائدة بل فوائد عظيمة في ذكر شيء من الأسباب التي ذكرها الله في كتابه موصلة إلى المطالب العالية ...

فأصل الأسباب كلها: الإيمان والعمل الصالح، جعل الله خيرات الدنيا والآخرة وحصولها بحسب قيام العبد بهذين الأمرين ...

وجعل الله مفتاح العلم: حسن السؤال وحسن الإنصات والتعلم والتقوى وحسن القصد، شاهده قول تعالى:

﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٤٣﴾.

وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾.

وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾،

أي: نورًا وعلمًا تفرقون به بين الحقائق كلها.

وقوله: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾»[1].



(١) «تيسير اللطيف المنان» (٣/ ٣١٦).

حسن السؤال

«وأما قوله: «وحسن السؤال نصف العلم»:

فإن العلم إنما يدرك بسلوك طرقه الموصلة إليه، وذلك بحسن[(١)] السؤال وحسن الإصغاء بأن يسأل الإنسان عن الأمور المهمة والتي يحتاجها، ويسأل بطريقة تحصل المقصود، فإن كان مشتغلًا بالتعلم مستعدا لطلب العلم فبالاشتغال بالكتب التي تليق بمطلبه على وجه يتمكن من فهمها والتوسع للتفكر في معانيها، ولا يشتغل بكتب لا تجدي عليه إلا العناء، أو يكثر من الدروس ما لا يتحمله ذهنه، فمن سلك هذه الطريقة النافعة رجي له الفلاح والإدراك.

وكذلك سؤال العلماء مشافهة يسأل عن الذي يحتاج

(١) في الأصل: «بحسب».

إليه بلطف ولين، ويصغي إلى إلقاء المعلم إصغاء المضطر المفتقر إلى علمه، فمتى وفق لهذه الحالة فقد فعل السبب الذي ينال به العلم، والتوفيق بيد الله وتيسيره»[1].



(١) «مجموع الفوائد واقتناص الأوابد» (٢١/ ٦٩).



فضائل وبشارات

أصول الفضائل

«أصول الفضائل ثلاثة: العلم والدين والجهاد ... ووجه الحصر ورجوع الفضائل كلها إلى هذه الثلاث: أن النقص الحاصل على الإنسان: إما أن يكون لفقد العلم وحصول الجهل، وذلك ضلال وفقد للهداية التي تنير للعبد جميع الطرق الدينية والدنيوية، فلا يعرف الوسائل ولا المقاصد ولا يهتدي إلى كيفية المنافع والمضار.

وإما أن يكون عارفا بذلك ولكن لا يعمل بمعرفته، يعرف الخير فيتركه ويعرف الشر فيفعله، يرى المنافع الدينية والدنيوية فينحرف عنها ويشاهد المضار المحققة فلا تدعه الأغراض الضارة حتى يقتحمها، فهذا حصل له النقص الكبير لا لعدم معرفته بل لعدم دينه، فإن الدين الصحيح هو الذي يسيّر العبد في مسالك الخيرات والمنافع، ويمنعه من المضار والمهالك.

وإما أن يكون عارفًا بالأمور سالكا مقتضاها عاملا بعلمه، لكنه مقتصر على نفسه لا يسعى في هداية غيره ولا إصلاح سواه، قد ملكه الكسل واستولى عليه الجبن والخور عن الجد والاجتهاد في إصلاح الغير والسعي في دفع الصائل، فهذا نقصه لفقد اتصافه بالجهاد الصحيح.

فمن كملت له هذه الأمور الثلاثة فهو السابق إلى الخيرات المستولي على كل الفضائل، حيث عرف الحق فاتبعه والباطل فاجتنبه، وجاهد نفسه وغيره للاستقامة على الصراط المستقيم، فأي فضيلة لم تحصل له؟ وأي خصلة حميدة لم يدركها؟»[1].



---

(١) «الرياض الناضرة» (٢٢/ ٢١٩).

«قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وقال: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾، وفي «الصحيحين» عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين**»، وقال: «**إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له**».

حدُّ العلم: ما قامت عليه الأدلة والبراهين، والنافع: ما تعلق بالدين وكان من العلوم المعينة على الدين.

وقد تواترت نصوص الكتاب والسنة على فضل العلم وشرفه وفضل أهله، وأن كل شيء يفتقر إليه، وأن الناس كلهم في الظلمات إلا من استنار بنور العلم.

وجعل الله طريق الجنة والصراط المستقيم مركَّبا من العلوم النافعة ومن الأعمال الصالحة.

العلم خير من المال، العلم يحرسك، وأنت تحرس المال.

العلم يصحبك في دورك الثلاث: في الدنيا وفي البرزخ ويوم يقوم الأشهاد، والمال إن فرض وجوده صحبك صحبة منكدة في حال الحياة الدنيا.

العلم نورٌ يهتدى به في ظلمات الشكوك والجهالات، وحياةٌ تقيم العبد وتوصله إلى الجنات.

ما زال علم العالم يعلم أو يعمل به أو يستفاد منه، فصحيفة حسناته في ازدياد في حال الحياة وبعد الممات.

بأي شيء يعرف الله ويهتدى إلى صراط الله؟ وبأي شيء يهتدى إلى الفرق بين الأحكام الخمسة التابعة لجميع الحركات والسكنات؟ وبأي شيء يهتدى إلى الفرقان بين الهدى والضلال والغي والرشاد؟ وبأي شيء تعرف الأعمال النافعة؟

والله لا يتمكن من شيء من ذلك إلا بالعلم.

العلم هو الأساس الأعظم لجميع المعاملات، وهو الشرط لصحة الأقوال والأعمال.

الجهل داء قاتل، والعلم حياة ودواء نافع.

حاجة الناس إلى العلم أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب.

الاشتغال بالعلم من أفضل الطاعات وأجل القربات.

مذاكرة العلم تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعلمه وتعليمه ودراسته توجب رضى رب العباد.

قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة**»، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا**»، قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: «**حلق الذكر**».

فرياض العلوم النافعة فيها من المعارف من كل زوج بهيج:

فيها: أجل المعارف وأفضلها، وهو العلم بأسماء الله وصفاته وأفعاله وآلائه.

وفيها: علم الحلال والحرام والنافع والضار.

وفيها: علم الأخلاق التي ترقي صاحبها إلى أعلى المقامات، وعلم الآداب التي تجعل العبد من أكبر البريات.

وفيها: تشخيص ما في النفوس من الخير والشر والرغبات والرهبات.

وفيها: كيفية توجيهها إلى فعل الخيرات وترك المنكرات، وإلى ما يناسبها من الأمور النافعات.

فيها: علوم العربية الجليلة على اختلاف منافعها وفوائدها، وثمرتها: تقيم لك اللسان وتهديك إلى أوضح العبارات وحسن البيان، وتستعين بها على فهم كلام الله وكلام رسوله، وتكون آلة لك في كل علم وعمل تسلكه.

وفي هذه الرياض علم أحوال التواريخ والدول وأصناف

الأمم، تتمكن فيها من اجتلاء القرون السالفين ومعاصرة الأمم الغابرين، ثم هكذا تنتقل من قرن إلى قرن، حتى تتصل بأحوال الأمم الموجودين، وتعتبر فيها حكمة الله وسنته في السالفين واللاحقين، فترى الخيرَ والفضل عنوانَ شرف وسعادة وذكرى جميلة حيث كان، والشرَّ والظلم عنوان شقاء وفضيحة وخزي في جميع الأزمان.

ثم تتجلى فيها عقول الأولين والآخرين، وكيف كان التفاوت الذي لا ينضبط ولا يدرك منتهاه بين أفراد البشر، فهذا لا يتميز عن البهائم إلا بالشكل والنطق من خسته ودناءته، وهذا يفوق أمة عظيمة في عقله ومعارفه وأخلاقه العالية، وهذا قد سيطرت عليه الشهوات البهيمية فانقاد لها عقله وهواه، وهذا قد ارتفعت همته فوق الثريا فلم تملكه العادات ولم يقدم شيئا على رضى مولاه.

وهكذا تجد في رياض العلوم كثيرا من نصوص الكتاب والسنة بنصها أو فحواها أو لازمها مما يدل على اعتبار جميع العلوم النافعة للدنيا والدين.

وفيها: الحث على تعليم الصناعات والمخترعات، وامتنان الله علينا بتسخير ما على الأرض وما في باطنها لنستخرج منه جميع ما نقدر عليه من المنافع التي لا يزال الله يعلمها الإنسان شيئًا بعد شيء.

وتجد أن الله أمرنا أن نعلم الجهال والسفهاء كيفية حفظ الأموال وكيفية التكسب فيها واستحصال منافعها، قال تعالى: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾، فأمرنا أن نعلمهم ونختبرهم فيما يليق بأحوالهم، فإذا مهروا في هذا العلم وأبصرنا رشدهم دفعنا إليهم أموالهم، وما داموا في جهلهم يعمهون وفي سفههم

يتيهون لا نمكنهم من أموالهم حذر الضياع والنقص، ففي هذا دليل على أن العلم نافع حتى في العلوم الدنيوية، وأنه حافظ للمنافع ودافع للمضار.

لولا العلم لكان الناس كالبهائم في ظلمات الجهالة، ولولا العلم لما عرفت المقاصد والوسائل، ولولا العلم ما عرفت البراهين على المطالب كلها ولا الدلائل.

العلم هو النور في الظلمات، وهو الدليل في المتاهات والشبهات، وهو المميز بين الحقائق، وهو الهادي لأكمل الطرائق.

بالعلم يرفع الله العبد درجات، وبالجهل يهوي إلى أسفل الدركات»(١).



(١) «الرياض الناضرة» (٢٢/ ١٢٢).

أهل العلم هم المقصودون بالآيات

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٢٣٠﴾.

«لأنهم هم المنتفعون بها النافعون لغيرهم، وفي هذا من فضيلة أهل العلم ما لا يخفى؛ لأن الله تعالى جعل تبيينه لحدوده خاصا بهم، وأنهم هم المقصودون بذلك، وفيه أن الله تعالى يحب من عباده معرفة حدود ما أنزل على رسوله، والتفقه بها»[1].



(١) «التفسير» (ص١١١).

الناطقون بالحق

قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

«وفي هذا فضيلة أهل العلم، وأنهم الناطقون بالحق في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وأن لقولهم اعتبارًا عند الله وعند خلقه»[1].



(١) «التفسير» (ص٥٦٥).

وهم الحجة

قال تعالى: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾.

«وهذه منقبة لأهل العلم وفضيلة وعلامة لهم، وأنه كلما كان العبد أعظم علمًا وتصديقًا بأخبار ما جاء به الرسول وأعظم معرفة بحكم أوامره ونواهيه كان من أهل العلم الذين جعلهم الله حجة على ما جاء به الرسول، احتج بهم على المكذبين المعاندين كما في هذه الآية وغيرها»[١].



(١) «التفسير» (ص٩٠٢).

قرن شهادتهم بشهادته

قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾.

«وفي هذه الآية فضيلة العلم والعلماء؛ لأن الله خصهم بالذكر من دون البشر، وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وجعل شهادتهم من أكبر الأدلة والبراهين على توحيده ودينه وجزائه، وأنه يجب على المكلفين قبول هذه الشهادة العادلة الصادقة.

وفي ضمن ذلك: تعديلهم، وأن الخلق تبع لهم، وأنهم هم الأئمة والمتبوعون، وفي هذا من الفضل والشرف وعلو المكانة ما لا يقادر قدره»[1].



(١) «التفسير» (ص١٣٨).

قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

«وعموم هذه الآية فيها مدح أهل العلم، وأن أعلى أنواعه العلم بكتاب الله المنزل، فإن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث، وفي ضمنه تعديل لأهل العلم وتزكية لهم، حيث أمر بسؤالهم، وأن بذلك يخرج الجاهل من التبعة، فدلَّ على أن الله ائتمنهم على وحيه وتنزيله، وأنهم مأمورون بتزكية أنفسهم والاتصاف بصفات الكمال»[1].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾﴾.

«وهذه الآية وإن كان سببها خاصا بالسؤال عن حالة

---

(١) «التفسير» (ص٥٦٨).

الرسل المتقدمين من أهل الذكر وهم أهل العلم، فإنها عامة في كل مسألة من مسائل الدين أصوله وفروعه إذا لم يكن عند الإنسان علم منها أن يسأل من يعلمها، ففيه الأمر بالتعلم والسؤال لأهل العلم، ولم يؤمر بسؤالهم إلا لأنه يجب عليهم التعليم والإجابة عما علموه.

وفي تخصيص السؤال بأهل الذكر والعلم نهي عن سؤال المعروف بالجهل وعدم العلم، ونهي له أن يتصدى لذلك»[1].



(١) «التفسير» (ص٦٧٩).

إنما يخشى الله من عباده العلماء

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾.

«فكل من كان بالله أعلم كان أكثر له خشية، وأوجبت له خشية الله الانكفاف عن المعاصي والاستعداد للقاء من يخشاه، وهذا دليل على فضيلة العلم، فإنه داع إلى خشية الله، وأهل خشيته هم أهل كرامته، كما قال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾»[1].



(١) «التفسير» (ص٩٢٠).

العلم نور

قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾.

«وذلك شامل للحسي من ذلك كالليل والنهار والشمس والقمر، والمعنوي كظلمات الجهل والشك والشرك والمعصية والغفلة، ونور العلم والإيمان واليقين والطاعة»[1].



(١) «التفسير» (ص٢٩٧).

ودرجات

قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾.

«فإن العلم يرفع الله به صاحبه فوق العباد درجات، خصوصا العالم العامل المعلم، فإنه يجعله الله إماما للناس بحسب حاله، تُرمق أفعاله، وتقتفى آثاره، ويستضاء بنوره، ويمشى بعلمه في ظلمة ديجوره، قال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ ﴾، ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾؛ فلا يضع العلم والحكمة إلا في المحل اللائق بها، وهو أعلم بذلك المحل وبما ينبغي له»[(١)].

وقال تعالى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ ﴾.

«في الدنيا بسعة الأرزاق وقلتها، واليسر والعسر، والعلم

(١) «التفسير» (ص٣١٤).

والجهل، والعقل والسفه، وغير ذلك من الأمور التي فضل الله العباد بعضهم على بعض بها، ﴿وَلَلْأَخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ٢١﴾»[1].



(١) «التفسير» (ص٥٨٩).

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩ ﴾.

«كما أن معلم الناس الخير يصلي الله عليه وملائكته حتى الحوت في جوف الماء؛ لسعيه في مصلحة الخلق وإصلاح أديانهم وقربهم من رحمة الله، فجوزي من جنس عمله»[1].



(١) «التفسير» (ص٧٦).

كبار أئمة الهدى

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾.

«وكذلك يجعل الله كبار أئمة الهدى وأفاضلهم يناضلون هؤلاء المجرمين ويردون عليهم أقوالهم ويجاهدونهم في سبيل الله، ويسلكون بذلك السبل الموصلة إلى ذلك، ويعينهم الله ويسدد رأيهم ويثبت أقدامهم، ويداول الأيام بينهم وبين أعدائهم حتى يدول الأمر في عاقبته بنصرهم وظهورهم، والعاقبة للمتقين»[١].



(١) «التفسير» (ص٣٢٧).

نعيم أئمة الهدى

قال تعالى: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

«ولكنه من المعلوم أن عذاب الرؤساء وأئمة الضلال أبلغ وأشنع من عذاب الأتباع، كما أن نعيم أئمة الهدى ورؤسائه أعظم من ثواب الأتباع»[1].



(١) «التفسير» (ص٣٥٠).

قال تعالى: ﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾.

«وسمى الله تعالى ما ذكروا به حظا؛ لأنه هو أعظم الحظوظ، وما عداه فإنما هي حظوظ دنيوية، كما قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾، وقال في الحظ النافع: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾»[1].



(١) «التفسير» (ص٢٦٣).

قال تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢﴾.

«وفي الإتيان بالشكر بعد النعم الدينية من العلم وتزكية الأخلاق والتوفيق للأعمال بيان أنها أكبر النعم، بل هي النعم الحقيقية التي تدوم إذا زال غيرها، وأنه ينبغي لمن وفقوا لعلم أو عمل أن يشكروا الله على ذلك ليزيدهم من فضله، وليندفع عنهم الإعجاب فيشتغلوا بالشكر»[1].

وقال تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ٢٠﴾.

«من الفوائد والحكم في قصة داود وسليمان ... **ومنها:**

(١) «التفسير» (ص٧١).

أن من أكبر نعم الله على عبده أن يرزقه العلم النافع، ويعرف الحكم والفصل بين الناس، كما امتن الله على عبده داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ»[1].



(١) «التفسير» (ص٩٥٧).

قال تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾.

«لما ذكر أحوال المنفقين للأموال وأن الله أعطاهم ومنَّ عليهم بالأموال التي يدركون بها النفقات في الطرق الخيرية وينالون بها المقامات السنية، ذكر ما هو أفضل من ذلك وهو أنه يعطي الحكمة من يشاء من عباده، ومن أراد بهم خيرًا من خلقه، والحكمة: هي العلوم النافعة والمعارف الصائبة، والعقول المسددة والألباب الرزينة، وإصابة الصواب في الأقوال والأفعال، وهذا أفضل العطايا وأجل الهبات... وهذان الأمران وهما بذل النفقات المالية وبذل الحكمة العلمية أفضل ما تقرب به المتقربون إلى الله، وأعلى ما وصلوا به إلى أجل الكرامات، وهما اللذان

ذكرهما النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته بالحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها**»[١].



(١) «التفسير» (ص١٢٧).

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٣٤﴾.

«والإحسان نوعان: الإحسان في عبادة الخالق والإحسان إلى المخلوق، فالإحسان في عبادة الخالق فسرها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

وأما الإحسان إلى المخلوق فهو إيصال النفع الديني والدنيوي إليهم ودفع الشر الديني والدنيوي عنهم، فيدخل في ذلك: أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وتعليم جاهلهم ووعظ غافلهم، والنصيحة لعامتهم وخاصتهم، والسعي في جمع كلمتهم، وإيصال الصدقات والنفقات الواجبة والمستحبة إليهم على اختلاف أحوالهم وتباين أوصافهم، فيدخل في ذلك: بذل الندى وكف الأذى

واحتمال الأذى، فمن قام بهذه الأمور فقد قام بحق الله وحق عبيده»[1].

وقال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٩٥﴾ «ويدخل في ذلك الإحسان بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتعليم العلم النافع»[2].

وقال تعالى: ﴿وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ١٢٨﴾ «أي تحسنوا في عبادة الخالق... وتحسنوا إلى المخلوقين بجميع طرق الإحسان من نفع بمال أو علم أو جاه أو غير ذلك»[3].

وقال تعالى: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ «أي للذين أحسنوا في عبادة الخالق بأن عبدوه على وجه المراقبة

---

(١) «التفسير» (ص١٥٨).

(٢) «التفسير» (ص٩٣).

(٣) «التفسير» (ص٢٣٧).

والنصيحة في عبوديته وقاموا بما قدروا عليه منها، وأحسنوا إلى عباد الله بما يقدرون عليه من الإحسان القولي والفعلي: من بذل الإحسان المالي والإحسان البدني والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتعليم الجاهلين ونصيحة المعرضين وغير ذلك من وجوه البر والإحسان»[1].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٢﴾ «في عبادة الخالق ببذل الجهد والنصح فيها، وإلى عباد الله ببذل النفع والإحسان إليهم، نؤتيهم من جملة الجزاء على إحسانهم علمًا نافعًا»[2].

---

(١) «التفسير» (ص٤٥٥).

(٢) «التفسير» (ص٥٠٣)، ومثلها كلام السعدي في آية القصص (ص٨١٩).

قال ابن تيمية: «كل من كان محسنا في عبادة ربه ومحسنا إلى الناس فإن الله يؤتيه العلم والحكمة، فهي لكل محسن، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٢﴾». «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٣٩٦).

وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ٣٧﴾ «بعبادة الله: بأن يعبدوا الله كأنهم يرونه، فإن لم يصلوا إلى هذه الدرجة فليعبدوه معتقدين وقت عبادتهم اطلاعه عليهم ورؤيته إياهم. والمحسنين لعباد الله بجميع وجوه الإحسان: من نفع مال أو علم أو جاه أو نصح أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر أو كلمة طيبة ونحو ذلك، فالمحسنون لهم البشارة من الله بسعادة الدنيا والآخرة»[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ١٦﴾ «وهذا شامل لإحسانهم في عبادة ربهم بأن يعبدوه كأنهم يرونه فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم، وللإحسان إلى عباد الله ببذل النفع والإحسان من مال أو علم أو جاه أو نصيحة أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر، أو غير ذلك من وجوه البر

(١) «التفسير» (ص٧٠٨).

وطرق الخيرات»[١].

قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾

«من مالٍ أو علمٍ أو أي نفع كان»[٢].



(١) «التفسير» (ص١٠٩٥).

(٢) «التفسير» (ص٢٣٠).

ومن القول الحسن

قال تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾.

«ومن القول الحسن: أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وتعليمهم العلم»[1].

وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.

«وهذا أمر بكل كلام يقرب إلى الله، من قراءة وذكر وعلم وأمر بمعروف ونهي عن منكر وكلام حسن لطيف مع الخلق على اختلاف مراتبهم ومنازلهم، وأنه إذا دار الأمر بين أمرين حسنين فإنه يؤمر بإيثار أحسنهما إن لم يمكن الجمع بينهما»[2].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

---

(١) «التفسير» (ص٤٨).

(٢) «التفسير» (ص٥٩٦).

«ومن الدعوة إلى الله: الترغيب في اقتباس العلم والهدى من كتاب الله وسنة رسوله، والحث على ذلك بكل طريق موصل إليه»[1].



(١) «التفسير» (ص١٠٠٧).

قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾.

«ويدخل في هذه الطائفة: أهل العلم والتعليم والمتصدون للخطابة ووعظ الناس عموما، وخصوصا المحتسبين[(١)] الذين يقومون بإلزام الناس بإقامة الصلوات وإيتاء الزكاة والقيام بشرائع الدين، وينهونهم عن المنكرات. فكل من دعا الناس إلى خير على وجه العموم أو على وجه الخصوص، أو قام بنصيحة عامة أو خاصة فإنه داخل في عموم هذه الآية الكريمة»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ

(١) في الأصل: «المحتسبون».

(٢) «التفسير» (ص١٥١).

﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ﴾.

«والأمر بالشيء والنهي عنه يدخل فيه ما لا يتم إلا به، فإذا كان المعروف والمنكر يتوقف على تعلم وتعليم أجبروا الناس على التعلم والتعليم»[1].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القاعدة الرابعة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، وكم في كتاب الله وسنة رسوله من الأمر بهذا الأصل العظيم والقاعدة العامة الجامعة لكل خير.

فإن المعروف اسم جامع لكل ما عرف حسنه شرعًا وعقلًا، والمنكر اسم جامع لكل ما عرف قبحه شرعًا وعقلًا، والحق هو العلوم النافعة والأعمال الصالحة، فيدخل في هذا: تعلم جميع العلوم النافعة وتعليمها، وكما يدخل في ذلك تعليم المستعدين لطلب العلم، فإنه يدخل

(١) «التفسير» (ص ٧١٠).

فيه تعليم الناس ووعظهم في المساجد والمجامع الصغار والكبار، وفي الحديث مع الأصحاب وغيرهم...»[1].



(١) «أصول عظيمة من قواعد الإسلام» (٦/ ٣٣٠).

وأفضل من الجهاد

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح أحاديث الجهاد من «عمدة الأحكام»: «تنبيه: هذا الفضل في الجهاد؛ لأن فيه نصرة الدين وإظهاره، وينبغي أن يعلم أن طلب العلم أفضل منه خصوصا في هذه الأزمنة التي قلَّ فيها العلماء، وأقبل الناس فيها على الدنيا، فالسعي في طلب العلم قد ذكر العلماء أنه أفضل من كثير من العبادات، بل من أكثرها، وذلك في مدة زهرته وكثرة العلماء ووفور ذلك في تلك الأزمنة، فكيف في هذه الأزمنة التي لم يبق فيها من العلم إلا شيء قليل؟ فقد كادت أعلامه أن تندرس، فلا شك أن طلب العلم أفضل من الجهاد؛ لأن به صلاح العالم، ومن أقبل على طلبه وتحصيله والبحث عن مسائله فقد قام بأمر عظيم وعبادة لا شك أنها اليوم أفضل من الجهاد ومن الصلاة ومن الصيام والحج ومن سائر العبادات على الإطلاق،

فهو إن بحث فهو في عبادة، وإن درس العلم أو سافر لطلبه أو ذهب لمجلسه أو فكر في المسائل فهو في عبادة، فوقت المتعلم كله عبادة والله أعلم»[1].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ «دل هذا على أن أحرى الناس بموافقة الصواب: أهل الجهاد، وعلى أن من أحسن فيما أمر به أعانه الله ويسر له أسباب الهداية، وعلى أن من جدَّ واجتهد في طلب العلم الشرعي فإنه يحصل له من الهداية والمعونة على تحصيل مطلوبه أمور إلهية خارجة عن مدرك اجتهاده، وتيسر له أمر العلم، فإن طلب العلم الشرعي من الجهاد في سبيل الله، بل هو أحد نوعي الجهاد الذي لا يقوم به إلا خواص الخلق، وهو الجهاد بالقول واللسان للكفار والمنافقين، والجهاد على تعليم أمور الدين، وعلى رد نزاع

(١) «التعليقات على عمدة الأحكام» (٤/ ٥٤٤).

المخالفين للحق ولو كانوا من المسلمين»[١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ ... وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ...﴾ «وقال كثير من الفقهاء: إنْ تفرَّغ القادر على الكسب لطلب العلم أعطي من الزكاة؛ لأن العلم داخل في الجهاد في سبيل الله»[٢].

وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ﴾ «هذا حث عظيم من الله لعباده في إنفاق أموالهم في سبيله، وهو طريقه الموصل إليه، فيدخل في هذا: إنفاقه في ترقية العلوم النافعة، وفي الاستعداد للجهاد في سبيله، وفي تجهز المجاهدين وتجهيزهم، وفي جميع المشاريع الخيرية النافعة للمسلمين...»[٣].

---

(١) «التفسير» (ص٨٤٩).

(٢) «التفسير» (ص٤٢٦).

(٣) «التفسير» (ص١٢٤).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن أهم الجهاد: السعي في إصلاح التعليم وأن تكون المدارس يعلم فيها الأهم فالأهم من العلوم النافعة للدنيا والدين، وأن يكون الدين هو الأصل الأعظم فيها والأساس الأقوم، وأن يكون غيره وسيلة وتبعا له، وأن يكون الغرض الوحيد من الناجحين فيها المتخرجين أن يكونوا صالحين في أنفسهم مصلحين لغيرهم، متربين بالأخلاق النافعة مهتمين بتربية الأمة، فإن أكثر المدارس الآن إنما هي بالعكس من هذا الأمر: الفنون الدنيوية هي الأصل، وعلوم الدين يجعل لها جزء ضعيف من التعليم، ولا يعتنى بأخلاق التلاميذ وآدابهم، وإنما الغرض منها المادة وأن يخرج منها تلاميذ يصلحون للوظائف الدنيوية المادية البحتة، وهذا أكبر نقص وأكبر الدواعي للضعف والانحلال.

ولا شك أن السعي في إصلاح التعليم من أهم الأمور،

وبه ترتفع الأمة الإسلامية وتنتفع بعلمائها وعلومها، فالتعاليم النافعة والتربية الصالحة تقود المسلمين إلى كل خير وفلاح، وتكون العلوم مقصودا بها حصول المنافع والصلاح والإصلاح»[1].



(١) «الجهاد في سبيل الله أو واجب المسلمين» (٢٦/ ٩٧).

السياحة في طلب العلم

قال تعالى: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلۡعَـٰبِدُونَ ٱلۡحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ﴾.

«فسرت السياحة بالصيام، أو السياحة في طلب العلم، وفسرت بسياحة القلب في معرفة الله ومحبته والإنابة إليه على الدوام، والصحيح أن المراد بالسياحة: السفر في القربات، كالحج والعمرة والجهاد وطلب العلم وصلة الأقارب ونحو ذلك»[1].



(١) «التفسير» (ص٤٤٣).

فضيلة العلم وثمرته

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾.

«وفي هذه الآية فضيلة العلم، وأن زينته وثمرته: التأدب بآدابه والعمل بمقتضاه»[1].



(١) «التفسير» (ص١١٤٧).

غايته أن يموت!

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

«ففي هذا فضيلة العلم وخصوصا الفقه في الدين وأنه أهم الأمور، وأن من تعلم علما فعليه نشره وبثه في العباد ونصيحتهم فيه، فإن انتشار العلم عن العالم من بركته وأجره الذي ينمي، وأما اقتصار العالم على نفسه وعدم دعوته إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة وترك تعليم الجهال ما لا يعلمون فأي منفعة حصلت للمسلمين منه؟! وأي نتيجة نتجت من علمه؟! وغايته أن يموت فيموت علمه وثمرته، وهذا غاية الحرمان لمن آتاه الله علمًا ومنحه فهمًا»[١].



(١) «التفسير» (ص٤٤٧).

الجارح المعلم

قال تعالى: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾.

«فيه فضيلة العلم، وأن الجارح المعلم بسبب العلم يباح صيده، والجاهل بالتعليم لا يباح صيده»(١).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح حديث عدي بن حاتم في الصيد: «قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما ذكر فضائل العلم: وفي هذا فضل العلم حيث أبيح صيد الكلب العالم دون الجاهل، فقد أثر العلم حتى في الحيوانات التي لم تعقل»(٢).



(١) «التفسير» (ص٢٥٦).

(٢) «التعليقات على عمدة الأحكام» (٤/ ٥١١).

قال تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾.

«**ومنها**: فضيلة العلم، وأن فاقده أقرب إلى الشر ممن يعرفه، لأن الله ذم الأعراب وأخبر أنهم أشد كفرًا ونفاقًا، وذكر السبب الموجب لذلك، وأنهم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله. **ومنها**: أن العلم النافع الذي هو أنفع العلوم: معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله من أصول الدين وفروعه، كمعرفة حدود الإيمان والإسلام والإحسان والتقوى والفلاح والطاعة والبر والصلة والإحسان، والكفر والنفاق والفسوق والعصيان والزنا والخمر والربا ونحو ذلك، فإن في معرفتها يتمكن من فعلها إن كانت مأمورًا بها أو تركها إن كانت محظورة، ومن الأمر بها والنهي عنها»[١].

(١) «التفسير» (ص٤٣٨).

«**ومنها**: أنه ينبغي ويتأكد على المعلم استعمال الإخلاص التام في تعليمه، وأن لا يجعل تعليمه وسيلة لمعاوضة أحد في مال أو جاه أو نفع، وأن لا يمتنع من التعليم أو لا ينصح فيه إذا لم يفعل السائل ما كلفه به المعلم، فإن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قد قال ووصى أحد الفتيين أن يذكره عند ربه فلم يذكره ونسي، فلما بدت حاجتهم إلى سؤال يوسف أرسلوا ذلك الفتى، وجاء سائلا مستفتيا عن تلك الرؤيا، فلم يعنفه يوسف ولا وبخه لتركه ذكره، بل أجابه عن سؤاله جوابًا تامًّا من كل وجه»[(١)].

«ومنها فضيلة العلم، علم الأحكام والشرع وعلم تعبير الرؤيا وعلم التدبير والتربية، وأنه أفضل من الصورة الظاهرة، ولو بلغت في الحسن جمال يوسف، فإن يوسف

(١) «التفسير» (ص٥٢٤).

بسبب جماله حصلت له تلك المحنة والسجن، وبسبب علمه حصل له العز والرفعة والتمكين في الأرض، فإن كل خير في الدنيا والآخرة من آثار العلم وموجباته»[1].

«وفي تضاعيف القصة فضيلة العلم من وجوه كثيرة وبيان أنه سبب الرفعة في الدنيا والآخرة وسبب صلاح الدين والدنيا، فيوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لم ينل ما نال إلا بالعلم؛ ولهذا قال له أبوه: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾، وامتن عليه وقت مكثه عند عزيز مصر بالتجربة والعلم، وتمكن عند ملك مصر واستخلصه لنفسه حين كلمه وعرف ما عنده من العلم، ودبر أحوال الخلق في الممالك المصرية بإصلاح دنياهم وحسن تدبيره في حفظ خزائن الأرض وتصريفها وتوزيعها بالعلم، وعند نهاية أمره توسل إلى ربه أن يتولاه في الدنيا بالعلم حيث

(١) «التفسير» (ص٥٢٤).

قال: ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾؛ ففضائل العلم وثمراته الجليلة العاجلة والآجلة لا تعد ولا تحصى»[1].



(١) «فوائد مستنبطة من قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ» (٣/ ٦٤٨).

«وفي هذه القصة العجيبة من الفوائد والأحكام والقواعد شيء كثير ننبه على بعضه بعون الله:

فمنها: فضيلة العلم والرحلة في طلبه، وأنه أهم الأمور، فإن موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ رحل مسافة طويلة، ولقي النصب في طلبه، وترك القعود عند بني إسرائيل لتعليمهم وإرشادهم، واختار السفر لزيادة العلم على ذلك.

ومنها: البداءة بالأهم فالأهم، فإن زيادة العلم وعلم الإنسان أهم من ترك ذلك والاشتغالِ بالتعليم من دون تزود من العلم، والجمع بين الأمرين أكمل.

ومنها: أن المسافر لطلب علم أو جهاد أو نحوه، إذا اقتضت المصلحة الإخبار بمطلبه وأين يريده فإنه أكمل من كتمه، فإن في إظهاره فوائد من الاستعداد له عدته، وإتيان الأمر على بصيرة، وإظهارا لشرف هذه العبادة

الجليلة، كما قال موسى: ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ﴿٦٠﴾﴾، وكما أخبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أصحابه حين غزا تبوك بوجهه مع أن عادته التورية، وذلك تبع للمصلحة ...

ومنها: أن العلم الذي يعلمه الله لعباده نوعان: علم مكتسب يدركه العبد بجده واجتهاده، ونوع علم لدني، يهبه الله لمن يمن عليه من عباده لقوله: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ﴿٦٥﴾﴾.

ومنها: التأدب مع المعلم، وخطاب المتعلم إياه ألطف خطاب، لقول موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ﴿٦٦﴾﴾، فأخرج الكلام بصورة الملاطفة والمشاورة، وأنك هل تأذن لي في ذلك أم لا، وإقراره بأنه يتعلم منه، بخلاف ما عليه أهل الجفاء أو الكبر، الذي لا يُظهر للمعلم افتقاره إلى علمه، بل يدعي أنه يتعاون هم

وإياه، بل ربما ظن أنه يعلم معلمه، وهو جاهل جدا، فالذل للمعلم وإظهار الحاجة إلى تعليمه من أنفع شيء للمتعلم.

ومنها: تواضع الفاضل للتعلم ممن دونه، فإن موسى بلا شك أفضل من الخضر.

ومنها: تعلم العالم الفاضل للعلم الذي لم يتمهر فيه ممن مهر فيه وإن كان دونه في العلم بدرجات كثيرة، فإن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من أولي العزم من المرسلين الذين منحهم الله وأعطاهم من العلم ما لم يعط سواهم، ولكن في هذا العلم الخاص كان عند الخضر ما ليس عنده، فلهذا حرص على التعلم منه. فعلى هذا، لا ينبغي للفقيه المحدث إذا كان قاصرا في علم النحو أو الصرف أو نحوه من العلوم أن لا يتعلمه ممن مهر فيه، وإن لم يكن محدثا ولا فقيها.

ومنها: إضافة العلم وغيره من الفضائل لله تعالى،

والإقرار بذلك، وشكر الله عليها لقوله: ﴿تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ﴾، أي: مما علمك الله تعالى.

ومنها: أن العلم النافع هو العلم المرشد إلى الخير، فكل علم يكون فيه رشد وهداية لطرق الخير وتحذير عن طريق الشر أو وسيلة لذلك فإنه من العلم النافع، وما سوى ذلك فإما أن يكون ضارا أو ليس فيه فائدة؛ لقوله: ﴿أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾.

ومنها: أن من ليس له قوة الصبر على صحبة العالم والعلم، وحسن الثبات على ذلك، أنه يفوته بحسب عدم صبره كثير من العلم، فمن لا صبر له لا يدرك العلم، ومن استعمل الصبر ولازمه أدرك به كل أمر سعى فيه، لقول الخضر -يعتذر من موسى بذكر المانع لموسى في الأخذ عنه- إنه لا يصبر معه.

ومنها: أن السبب الكبير لحصول الصبر إحاطةُ الإنسان علما وخبرة بذلك الأمر الذي أمر بالصبر عليه، وإلا فالذي لا يدريه أو لا يدري غايته ولا نتيجته ولا فائدته وثمرته ليس عنده سبب الصبر؛ لقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾، فجعل الموجب لعدم صبره عدم إحاطته خبرا بالأمر ...

ومنها: أن المعلم إذا رأى المصلحة في إيزاعه للمتعلم أن يترك الابتداء في السؤال عن بعض الأشياء حتى يكون المعلم هو الذي يوقفه عليها فإن المصلحة تتبع، كما إذا كان فهمه قاصرا، أو نهاه عن الدقيق في سؤال الأشياء التي غيرها أهم منها، أو لا يدركها ذهنه، أو يسأل سؤالا لا يتعلق في موضع البحث»[1].



(١) «التفسير» (ص٦٢٨)، «تيسير اللطيف المنان» (٣/ ٢٤٢).

الزيادة من العلم

قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾.

«أمره تعالى أن يسأله زيادة العلم فإن العلم خير، وكثرة الخير مطلوبة، وهي من الله، والطريق إليها: الاجتهاد والشوق للعلم وسؤال الله والاستعانة به والافتقار إليه في كل وقت.

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة: الأدب في تلقي العلم، وأن المستمع للعلم ينبغي له أن يتأنى ويصبر حتى يفرغ المملي والمعلم من كلامه المتصل بعضه ببعض، فإذا فرغ منه سأل إن كان عنده سؤال، ولا يبادر بالسؤال وقطع كلام ملقي العلم فإنه سبب للحرمان، وكذلك المسؤول ينبغي له أن يستملي سؤال السائل ويعرف المقصود منه قبل الجواب فإن ذلك سبب لإصابة الصواب»[١].

---

(١) «التفسير» (ص٦٧٣).

«فالعلم أجل الأشياء وبه تعرف جميع الأشياء، فسؤاله وسؤال الزيادة منه من أفضل ما سأل السائلون»[1].



(١) «المواهب الربانية من الآيات القرآنية» (٣/ ٥٥٧).

وهو الرزق العاجل

قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾.

«ورزق ربك العاجل من العلم والإيمان وحقائق الأعمال الصالحة، والآجل من النعيم المقيم والعيش السليم في جوار الرب الرحيم خير وأبقى»[(١)].



(١) «التفسير» (ص٦٧٦).

العلم والمساجد

قال تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾.

«يدخل في ذلك: الصلاة كلها فرضها ونفلها، وقراءة القرآن والتسبيح والتهليل وغيره من أنواع الذكر، وتعلم العلم وتعليمه، والمذاكرة فيها، والاعتكاف، وغير ذلك من أنواع العبادات التي تفعل في المساجد»[١].



(١) «التفسير» (ص٧٥٢).

العلم والقول السديد

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠﴾.

«وهو القول الموافق للصواب أو المقارب له عند تعذر اليقين، من قراءة وذكر وأمر بمعروف ونهي عن منكر وتعلم علم وتعليمه، والحرص على إصابة الصواب في المسائل العلمية، وسلوك كل طريق موصل لذلك وكل وسيلة تعين عليه»[1].



(١) «التفسير» (ص٨٩٩).

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾.

«فكل خير عمل به أحد من الناس بسبب علم العبد وتعليمه أو نصحه أو أمره بالمعروف أو نهيه عن المنكر أو علم أودعه عند المتعلمين أو في كتب ينتفع بها في حياته وبعد موته، أو عمل خيرا من صلاة أو زكاة أو صدقة أو إحسان فاقتدى به غيره، أو عمل مسجدا أو محلا من المحال التي يرتفق بها الناس وما أشبه ذلك، فإنها من آثاره التي تكتب له. وكذلك عمل الشر، ولهذا من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة.

وهذا الموضع يبين لك علو مرتبة الدعوة إلى الله والهداية إلى سبيله بكل وسيلة وطريق موصل إلى ذلك، ونزول درجة الداعي إلى الشر الإمام فيه، وأنه أسفل

الخليقة وأشدهم جرما وأعظمهم إثما»[1].

«والأعمال التي هي من آثار عمله نوعان: (أحدهما) أن تقع بغير قصد من الإنسان، كأن يعمل أعمالا صالحة خيرية فيقتدي به غيره في هذا الخير، فإن ذلك من آثار عمله، وكمن يتزوج بقصد الإعفاف فقط فيعطيه الله أولادا صالحين ينتفع بهم وبدعائهم. (والثاني) وهو أشرف النوعين أن يقع ذلك بقصده كمن علم غيره علمًا نافعًا، فنفس تعليمه ومباشرته له من أجل الأعمال، ثم ما حصل من العلم والخير المترتب على ذلك فإنه من آثار عمله، كمن يفعل الخير ليقتدي به الناس، أو يتزوج للعفة ولحصول الذرية الصالحة فيحصل مراده، فإن هذا من آثار عمله»[2].



(١) «التفسير» (ص٩٢٧).

(٢) «القواعد الحسان لتفسير القرآن» (٣/ ٤٤٢).

من دعا إلى هدى

«هذا الحديث وما أشبهه من الأحاديث فيه الحث على الدعوة إلى الهدى والخير، وفضل الداعي، والتحذير من الدعاء إلى الضلالة والغي، وعظم جرم الداعي وعقوبته.

والهدى: هو العلم النافع والعمل الصالح، فكل من علم علما أو وجه المتعلمين إلى سلوك طريقة يحصل لهم فيها علم: فهو داع إلى الهدى .. وكل من أبدى نصيحة دينية أو دنيوية يتوصل بها إلى الدين فهو داع إلى الهدى، وكل من اهتدى في علمه أو عمله فاقتدى به غيره فهو داع إلى الهدى»[١].



(١) «بهجة قلوب الأبرار» (٥/ ٢٧).

تسلسل الانتفاع

«الثاني: العلم الذي ينتفع به من بعده: كالعلم الذي علَّمه الطلبة المستعدين للعلم، والعلم الذي نشره بين الناس، والكتب التي صنفها في أصناف العلوم النافعة. وهكذا كلُّ ما تسلسل الانتفاع بتعليمه مباشرة أو كتابة فإن أجره جار عليه، فكم من علماء هداة ماتوا من مئات السنين وكتبهم مستعملة، وتلاميذهم قد تسلسل خيرهم، وذلك فضل الله»[1].



(١) «بهجة قلوب الأبرار» (٥/ ١١٩) شرح حديث: «**أو علم ينتفع به**».

«هذا الحديث من أعظم فضائل العلم، وفيه أن العلم النافع علامة على سعادة العبد، وأن الله أراد به خيرًا ... ودل مفهوم الحديث على أن من أعرض عن هذه العلوم بالكلية فإن الله لم يرد به خيرا؛ لحرمانه الأسباب التي تنال بها الخيرات وتكتسب بها السعادة»[1].



(١) «بهجة قلوب الأبرار» (٥/ ٣٠).

«أمر الله بتعلم جميع العلوم النافعة، لا سيما علم ما أنزل الله على رسوله من الكتاب والحكمة، الذي يجمع كلَّ علم نافع، وأمر بسؤال أهل العلم لمن لم يعلم، وأخبر برفعتهم في الدنيا والآخرة، وأنَّهم سادات الخلق في دنياهم وأخراهم، وأئمتهم الذين بهم يقتدون، وعلى آثارهم يهتدون، وعلى طريقتهم يسلكون.

فالعلم يقصر التعبير عن كنه فضله، وعلو مرتبته، ويكفي في هذا أنَّ جميع الأقوال والأفعال والإرادات متوقفة في صحتها وفسادها، وكمالها ونقصها، وفي جميع صفاتها على العلم، ما حَكَمَ به العلم من ذلك فهو كما قال.

وإنَّ العلم نور للصدور وحياة للقلوب، به يعرف الله، وبه يُعبد، وبه يعرف الحلال من الحرام، والطيب من الخبيث، وبه يميز بين الأبرار والفجار، وأهل الجنة وأهل النار.

والعلم يقوم ما اعوج من الصفات، ويكمل ما نقص من الكمالات، ويسد الخلل، ويصلح العمل، وبه صلاح الدين والدنيا، وبضده فساد ذلك ونقصه. العلم ميراث الرسول، والعلماء ورثة الأنبياء، فإنَّ الأنبياء لم يورثوا إلا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر، ولولا العلم لكان الناس كالبهائم، والحاجة إلى العلم أعظم من الحاجة إلى الطعام والشراب.

والعلم النافع هي العلوم الشرعية، وما أعان عليها من علوم العربية بأنواعها، ومن العلوم الشرعية تعلُّم الفنون المعينة على الدين، وعلى قوة المسلمين، وعلى الاستعداد للأعداء للمقاومة والمدافعة، فإنَّها داخلة في الجهاد في سبيل الله، فكلُّ أمرٍ أمرَ به الشارع وهو يتوقف على أمورٍ كانت مأمورا بها»[1].



(١) «فتح الرحيم الملك العلام» (٣/ ٧٥٤).

المفاضلة بين العلم وصلاة النافلة

وسئل هل الأفضل القراءة أو استماع العلم النافع؟

فأجاب: «الاستماع للعلم النافع والذكر أفضل من اشتغال الإنسان بقراءة أو صلاة نافلة»[1].



(١) «الفتاوى السعدية» (٢٤/ ١٢٣).

صوى وإشارات

كونوا أنصار الله

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ﴾.

«ومن نصر دين الله: تعلم كتاب الله وسنة رسوله، وتعليمه، والحث على ذلك، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[1].

و«كل من قام بحق أو دعا إليه أو سعى في إنكار منكر وإبطال باطل وجبت معاونته ومساعدته على ذلك، وهو داخل في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ﴾، ودلت هذه الآية ونحوها باللزوم على الأمر بالسعي بالأسباب التي تتم بها نصرة الحق، كالتعلم والتعليم للعلوم النافعة ونحوها»[2].



(١) «التفسير» (ص١١٦٨).

(٢) «المواهب الربانية من الآيات القرآنية» (٣/ ٥٨٢).

الحث على العلم

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ﴾.

«فيها آيات بينات وفوائد متعددة ... **ومنها**: الحث على تحصيل العلوم النافعة والمباحثة فيه؛ لأن الله بعثهم لأجل ذلك، وببحثهم ثم بعلم الناس بهم حصل البرهان والعلم بأن وعد الله حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها.

ومنها: الأدب فيمن اشتبه عليه العلم أن يرده إلى عالمه وأن يقف عند ما يعرف»[١].



(١) «تيسير اللطيف المنان» (٣/ ٢٦٩)، «التفسير» (ص٦١٣).

فائدتـــــان

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ... ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ ...﴾.

«وفي هاتين الآيتين فوائد، منها: أن السيد وولي الصغير مخاطبان بتعليم عبيدهم ومن تحت ولايتهم من الأولاد العلم والآداب الشرعية؛ لأن الله وجه الخطاب إليهم بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ولا يمكن ذلك إلا بالتعليم والتأديب.

ومنها: أنه ينبغي للواعظ والمعلم ونحوهم ممن يتكلم في مسائل العلم الشرعي أن يقرن الحكم ببيان مأخذه ووجهه، ولا يلقيه مجردا عن الدليل والتعليل؛ لأن الله لما بين الحكم المذكور علله بقوله: ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ﴾»[1].



(١) «التفسير» (ص٧٥٩).

الإيمان سبب العلم والهداية

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ ﴾.

«أي بسبب ما معهم من الإيمان يثيبهم الله أعظم الثواب وهو الهداية، فيعلمهم ما ينفعهم، ويمنُّ عليهم بالأعمال الناشئة عن الهداية، ويهديهم للنظر في آياته، ويهديهم في هذه الدار إلى الصراط المستقيم، وفي الصراط المستقيم، وفي دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم»[١].



(١) «التفسير» (ص٤٥١).

الإكثار من الذكر سبب لنيل العلوم

قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾.

«وفي الآية الكريمة: فضيلة العلم، وأن على من علمه الله ما لم يكن يعلم: الإكثار من ذكر الله.

وفيه: الإشعار أيضا أن الإكثار من ذكره سبب لتعليم علوم أخر؛ لأن الشكر مقرون بالمزيد»[(١)].



(١) «التفسير» (ص١١٥)، «تيسير اللطيف المنان» (٣/ ٧٩).

العمل بالعلم

قال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥﴾.

«وفي هذه الآيات: الترغيب في العمل بالعلم، وأن ذلك رفعة من الله لصاحبه وعصمة من الشيطان، والترهيب من عدم العمل به، وأنه نزول إلى أسفل سافلين وتسليط للشيطان عليه.

وفيه: أن اتباع الهوى وإخلاد العبد إلى الشهوات يكون سببًا للخذلان»(١).



(١) «التفسير» (ص٣٨٠).

البخل بالعلم

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم﴾.

«أي يمنعون ما عندهم مما آتاهم الله من فضله من المال والجاه والعلم وغير ذلك مما منحهم الله وأحسن إليهم به وأمرهم ببذل ما لا يضرهم منه لعباده فبخلوا بذلك وأمسكوه وضنوا به على عباد الله، وظنوا أنه خير لهم بل هو شر لهم في دينهم ودنياهم وعاجلهم وآجلهم»[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾.

«وهذا الميثاق أخذه الله تعالى على كل من أعطاه الله الكتاب وعلمه الله العلم أن يبين للناس ما يحتاجون إليه مما علمه الله ولا يكتمهم ذلك ويبخل عليهم به، خصوصا

(١) «التفسير» (ص١٧٠).

إذا سألوه أو وقع ما يوجب ذلك، فإن كل من عنده علم يجب عليه في تلك الحال أن يبينه ويوضح الحق من الباطل، فأما الموفقون فقاموا بهذا أتم القيام وعلموا الناس مما علمهم الله ابتغاء مرضاة ربهم وشفقة على الخلق وخوفًا من إثم الكتمان»[(١)].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾.

«أي من العلم الذي يهتدي به الضالون ويسترشد به الجاهلون، فيكتمونه عنهم، ويظهرون لهم من الباطل ما يحول بينهم وبين الحق، فجمعوا بين البخل بالمال والبخل بالعلم وبين السعي في خسارة أنفسهم وخسارة غيرهم»[(٢)].

(١) «التفسير» (ص١٧٣).

(٢) «التفسير» (ص١٩٧).

وقال تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِۚ﴾.

«الذي يراد منهم، وهذا شر ما في الإنسان: أن يكون شحيحا بما أمر به، شحيحا بماله أن ينفقه في وجهه، شحيحا في بدنه أن يجاهد أعداء الله أو يدعو إلى سبيل الله، شحيحا بجاهه، شحيحا بعلمه ونصيحته ورأيه»[1].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ١٠﴾.

«ويدخل في هذا: السائل للمال والسائل للعلم، ولهذا كان المعلم مأمورا بحسن الخلق مع المتعلم، ومباشرته بالإكرام والتحنن عليه، فإن في ذلك معونة له على مقصده وإكراما لمن كان يسعى في نفع العباد والبلاد»[2].



(١) «التفسير» (ص٨٨٣).

(٢) «التفسير» (ص١٢٦١)، وينظر: «بهجة قلوب الأبرار» (٥/ ١٩٣) شرح حديث: «**فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم**».

قال تعالى: ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾.

«﴿وَأَمۡرُهُمۡ﴾ الديني والدنيوي ﴿شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾، أي: لا يستبد أحد منهم برأيه في أمر من الأمور المشتركة بينهم، وهذا لا يكون إلا فرعا عن اجتماعهم وتوالفهم وتوادهم وتحاببهم وكمال عقولهم، أنهم إذا أرادوا أمرًا من الأمور التي تحتاج إلى إعمال الفكر والرأي فيها اجتمعوا لها وتشاوروا وبحثوا فيها، حتى إذا تبينت لهم المصلحة انتهزوها وبادروها، وذلك كالرأي في الغزو والجهاد وتولية الموظفين لإمارة أو قضاء أو غيره، وكالبحث في المسائل الدينية عموما، فإنها من الأمور المشتركة، والبحث فيها لبيان الصواب مما يحبه الله، وهو داخل في هذه الآية»[١].



(١) «التفسير» (ص١٠٢٣).

البحث والتذاكر

في شرح حديث اختلاف ابن عباس والمسور بن مخرمة في غسل المحرم وسؤالهما لأبي أيوب الأنصاري.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفيه: أنه ينبغي للعلماء وطلبة العلم البحث في مسائل العلم والتذاكر فيما بينهم، فإذا لم يتفقوا على مسألة سألوا من هو أعلم بها منهم فإن بذلك يدرك العلم وتحيا الأمة، وبقدر ما يهمل من العلم ويترك التعلم تنحط الأمة ويفوتها خير الدين والدنيا، فلا حياة ولا شرف ولا عز إلا بالعلم»[(١)].



---

(١) «التعليقات على عمدة الأحكام» (٤/ ٢٧٤).

«القاعدة الثانية والستون: الصبر أكبر عون على كل الأمور والإحاطة بالشيء علما وخبرا هو الذي يعين على الصبر، وهذه القاعدة عظيمة النفع، قد دل القرآن عليها صريحا وظاهرا في أماكن كثيرة...

ولهذا الصبر وسيلته وآلته التي ينبني عليها ولا يمكن وجوده بدونها: وهو معرفة الشيء الذي يصبر عليه وما فيه من الفضائل وما يترتب عليه من الثمرات، فمتى عرف العبد ما في الطاعات من صلاح القلوب وزيادة الإيمان واستكمال الفضائل وما تثمره من الخيرات والكرامات وما في المحرمات من الضرر والرذائل وما توجبه من العقوبات المتنوعة، وعلم ما في أقدار الله من البركة وما لمن قام بوظيفته فيها من

الأجور = هان عليه الصبر على جميع الشدائد، وبهذا يعلم فضل العلم»[1].



(١) «القواعد الحسان لتفسير القرآن» (٣/ ٤٥٣).

«توطين النفس على العمل والعزم الذي لا تردد فيه أكبر عون على إتمامه وإتقانه وسهولته على العامل ... فطالب العلم وسالك طريق خير وطالب سبب من الأسباب الدنيوية النافعة، كل هؤلاء محتاجون إلى توطين نفوسهم على مطلوبهم، وأن يستمروا على ما يسره الله لهم من الأسباب التي ينالون بها مطالبهم، ويثابروا على ذلك حتى يتم لهم ما أرادوه وطلبوه، ولا يتنقلوا في الأسباب قبل تمام ما قصدوه، فإن التنقل في الأسباب وكثرة الطوارئ التي تطرأ على العبد مضيعة للوقت مذهبة للبركة، والتجربة والمشاهدة خير شاهد لذلك، والله الموفق»[(١)].



(١) «مجموع الفوائد واقتناص الأوابد» (٢١/ ١٦٨).

لما صبروا

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

«لما صبروا على التعلم والتعليم والدعوة إلى الله والأذى في سبيله، وكفوا نفوسهم عن جماحها في المعاصي واسترسالها في الشهوات. ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: وصلوا في الإيمان بآيات الله إلى درجة اليقين، وهو العلم التام الموجب للعمل، وإنما وصلوا إلى درجة اليقين؛ لأنهم تعلموا تعلمًا صحيحًا، وأخذوا المسائل عن أدلتها المفيدة لليقين، فما زالوا يتعلمون المسائل ويستدلون عليها بكثرة الدلائل حتى وصلوا لذاك، فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين»[1].



(١) «التفسير» (ص٨٧٦).

وفي شرح حديث: ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قالوا: بلى يا رسول الله.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكانت هذه عادتهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ؛ لأنهم يرون أنفسهم مفتقرين إلى العلم محتاجين إليه جدا، وهكذا ينبغي لطالب العلم، فمن رأى نفسه بهذه الحال حرص وأدرك علما، ولهذا لما كان الصحابة في الذروة العليا من هذه الحالة نقلوا جميع الشرع إلى من بعدهم ولم يفتهم منه مسألة واحدة»[(١)].



(١) «التعليقات على عمدة الأحكام» (٤/ ٤٩٣).

تحذير من التفرق

قال تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٣٢﴾.

«وفي هذا تحذير للمسلمين من تشتتهم وتفرقهم فرقا، كل فريق يتعصب لما معه من حق وباطل، فيكونون مشابهين بذلك للمشركين في التفرق، بل الدين واحد والرسول واحد والإله واحد، وأكثر الأمور الدينية وقع فيها الإجماع بين العلماء والأئمة، والأخوة الإيمانية قد عقدها الله وربطها أتم ربط فما بال ذلك كله يلغى ويبنى التفرق والشقاق بين المسلمين على مسائل خفية أو فروع خلافية يضلل بها بعضهم بعضا ويتميز بها بعضهم عن بعض؟! فهل هذا إلا من أكبر نزغات الشيطان وأعظم

مقاصده التي كاد بها المسلمين؟ وهل السعي في جمع كلمتهم وإزالة ما بينهم من الشقاق المبني على ذلك الأصل الباطل إلا من أفضل الجهاد في سبيل الله وأفضل الأعمال المقربة إلى الله»[1].



(١) «التفسير» (ص٨٥٦).

قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾.

«ودلت الآية الكريمة على أن الإنسان كما يأخذ من الناس الذي له يجب عليه أن يعطيهم كل ما لهم من الأموال والمعاملات، بل يدخل في عموم هذا: الحجج والمقالات، فإنه كما أن المتناظرين قد جرت العادة أن كل واحد منهما يحرص على ماله من الحجج فيجب عليه أيضا أن يبين ما لخصمه من الحجة التي لا يعلمها، وأن ينظر في أدلة خصمه كما ينظر في أدلته هو، وفي هذا الموضع يعرف إنصاف الإنسان من تعصبه واعتسافه، وتواضعه من كبره، وعقله من سفهه، نسأل الله التوفيق لكل خير»[١].



(١) «التفسير» (ص١٢٤٢).

«أما بعد: فإن العلم أفضل الأعمال وأكمل الأحوال، وبه تتم الأمور وتدرك المطالب. والعلم هو ما دل عليه الدليل، والنافع منه: ما هو منقول عن الرسول.

والعلم لا يدرك بالأماني ولا بالكسل أو السعي الضعيف، ولا يدرك بسلوك غير طرقه وأبوابه، وإنما يدرك العلم بالجد والاجتهاد في تقرير المسائل وتصويرها وتحريرها، وبمعرفة أدلته ومآخذه وأصوله التي يرجع إليها، وبالمقابلة بين الأقوال المتباينة والمسائل المتعارضة، فإن الحق عليه أدلة وبراهين، وشواهد يتميز بها عن ضده: وبضدها تتبين الأشياء.

واعلم أن من أجل العلوم وأفرضها وأعظمها نفعا: علم الفقه، الذي هو معرفة الأحكام الشرعية الفروعية بأدلتها التفصيلية؛ لأنه مأخوذ عن كتاب الله وسنة رسول

الله: نصا أو ظاهرا أو استنباطا أو تنبيها أو قياسا أو اعتبارا.

وهو نوعان: نوع مجمع عليه، وهو جمهور علم الفقه ولله الحمد.

ونوع وقع فيه الخلاف بين أهل العلم لاختلاف مآخذهم وتباين استنباطاتهم، وإن كانوا ولله الحمد قصدهم جميعا واحدا، وهو ترجيح ما رجحه الكتاب والسنة، وبهذا صاروا كلهم مأجورين على اجتهاداتهم، فالمصيب له أجران والمخطئ له أجر واحد، وخطؤه معفو عنه.

ولإصابة الصواب أسباب منها: حسن الفهم عن الله وعن رسوله، ونور الفهم والذكاء، وقوة الإخلاص، والاستعانة بالله في الوصول إلى الصواب، وعدم التعصب لما يقوله أو يقوله من يعظمه، وسرعة الرجوع إلى الحق عند اتضاح الصواب، والمقابلة بين الأقوال المتعارضة،

واستيعاب ما أمكن من أدلة كل قول ومأخذه، ووزن الأدلة والمآخذ بالموازين العادلة، وأصول الفقه المتفق عليها.

لهذا أحببت أن أضع في هذا التعليق عدة مسائل من مسائل الفقه المختلف فيها بين العلماء مما اشتهر به الخلاف، وكان الخلاف فيها له أهمية، وأجعلها على صورة مناظرة بين (المستعين بالله) و (المتوكل على الله) لأن في جعلها على هذه الصورة فوائد كثيرة:

منها: تيسير مأخذ القولين، ووجودهما في محل واحد، وذلك من مقربات العلم.

ومنها: التمرن على المناظرة والمباحثة التي هي من أكبر الوسائل لإدراك العلم وثبوته وتنوعه.

ومنها: التمرن على الاستدلال والرجوع إلى أصول المسائل، ليصير للعبد ملكة تامة يحسن معها الاستدلال والمناظرة والنظر.

ومنها: أن يعود الإنسان نفسه سرعة قبول الحق إذا اتضح له صوابه وبان له رجحانه.

ومنها: أن يعلم أن الخلاف في مثل هذه المسائل بين أهل العلم لا يوجب القدح والعيب والذم، بل كما قال بعضهم: نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه. بخلاف حال الجاهل ضيق العطن، الذي يرى أن من خالفه أو خالف من يعظمه قد فعل إثما عظيما، وهو معذور، بل ربما كان الصواب معه، فهذا حالة لا يرتضيها أحد من أهل العلم، ونسأل الله العافية منها ومن كل ما لا يحبه الله ورسوله»[1].



(١) «المناظرات الفقهية» (٨/ ٣٦٣).

مقدمة كتاب «تذكرة أولي الألباب»

«الحمد لله الذي سهل طريق العلم لمن استعان به وبذل جهده وأتاه من أبوابه غاية التسهيل، وجعل الفكر والنظر والسؤال والمراجعة وحسن الاستماع مفتاحا للعلم على الإجمال والتفصيل، والصلاة والسلام على محمد وعلى آله وأصحابه أولي العلم والعمل والهداية إلى أوضح سبيل.

أما بعد:

فهذه أسئلة أوردتها على الطلبة من أبوابها على ترتيب قراءاتهم في مختصر المقنع، كنت ألقيتها عليهم بالإملاء أسئلة مجردة في بعض الأوقات، فيجتمعون فرقتين كل فرقة تبحث وتجيب على حدة، ويكتبون تحت هذه الأسئلة ما تيسر لهم من الجواب ويعرضونها عليّ، فما كان أكثر صوابا أثبته هنا، لكي تكون تذكرة لهم ولغيرهم إن شاء الله تعالى، وحفظا لها عن الضياع، ولما لم يمكن أني

أكتب في كل جواب اسم جميع الفريقين الذين أثبتت أجوبتهم اتفق كل فريق من الفريقين المذكورين أن يجعلوا الأجوبة باسم واحد منهم، والباقون يدخلون إجمالا، طلبا للاختصار والإيضاح، ليكن معلومًا.

فإذا قيل: الجواب لعيد وأصحابه فالمراد بهم عيد بن عبدالعزيز بن عيد التميمي و... وإذا قيل الجواب لعلي وأصحابه فالمراد بهم علي بن محمد العبدالله الخويطر و... وهذا أوان الشروع في المقصود بعون الملك المعبود»[1].



---

(١) «تذكرة أولي الألباب» (٨/ ٥٧٧).

الفائدة نوعان

«الفائدة التي تستفيدها من العلوم نوعان:

أحدهما: مسائل لم تكن تعرفها قبل ذلك، فتستفيدها بعد جهلك بها.

ثانيهما: مسائل قد علمتها ثم نسيتها، فيحصل لك تذكرها.

ولهذا ذكر الله هذين النوعين في قوله: ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ٨﴾ يتبصر بها الأعمى الجاهل، فيحصل له العلم بعد الجهل، وذكرى يتذكرها من كان علمها ثم نسيها.

وهنا نوع ثان من التذكرة: وهو أن يعرفها جملة ثم يفصل له ما كان في علمه مجملا، فيكون للتفصيل بعد الإجمال موقع عظيم.

ثم الطريق إلى هذين الأمرين: التبصرة والذكرى، التفكر

والتأمل في حدود الأشياء وتصورها التصور الذي يميزها عن غيرها، ثم الاستدلال بالدليل والبرهان عليها، فالنظر والتدبر مبتدأ العلم ومفتاحه، ثم ينتقل منه إلى تصور الأشياء ثم الحكم عليها حكما صحيحا يحصل به تبصرة للمجهول وتذكرة للمنسي، ولكن الذي ينتفع بذلك حقيقة هو العبد المنيب إلى الله، الذي وجه وجهه لله وقصد اتباع الحق والبحث عن طريقه، فأما من أعرض عن الله أو كان غرضه غير الحق فإنه لا ينتفع بالآيات والعلوم النافعة، بل تكون حجة عليه، والله أعلم»[١].



(١) «تذكرة أولي الألباب» (٨/ ٥٧٧).

«قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢﴾ الآيات كما تدل على ذم من يأمر الناس بما لا يأتمر به وينهاهم عما كان يرتكب فإنها أيضًا تهدي إلى طريقة نافعة في التعلم والتعليم، وهي أنك إذا تعلمت أو علمت فلا يكن ذلك مجرد تعليم ألفاظ ومعان لا تتصف بها ولا يتصف بها من تعلمه، بل طبق العمل على العلم، واستعن بالعمل على قوة العلم وجودته وكماله»[1].



(١) «مجموع الفوائد واقتناص الأوابد» (٢١/ ٢٤٩).

«الفصل السابع عشر في الحث على سلوك طريق الحكمة والرفق في كل الأمور ... ومن الحكمة: أن لا تلقي على المتعلم العلوم المتنوعة التي لا يتحملها ذهنه أو يضيع بعضها بعضا، واتفق أهل المعرفة بطرق التعليم أن هذا ضار ومفوت للعلم، وأن الطريق الأقرب أن يجعل للمتعلم من الدروس ما يسهل عليه حفظها وفهمها وعقلها، والتفكر التام فيها، فإن هذا من الدعوة إلى الله بالحكمة التي هي الطريق الوحيد للنجاح.

ومن الحكمة: أن ترمق المتعلم وتقوي رغبته في التعلم بكل طريق، فإن قوة الرغبة تزيد في الحفظ والفهم، وكلما كانت رغبة طالب العلم فيه أقوى كان محصوله أكثر وأتم.

ومن الحكمة في تعليم العوام وإرشادهم: أن يعلموا ما

يحتاجونه بألفاظ وعبارات مناسبة لأذهانهم قريبة من أفهامهم، فهذا فيه نفع كبير.

وكذلك ينبغي لأهل العلم في مجالسهم مع الناس العامة والخاصة أن يبحثوا بما يناسب الحال عند المناسبات من المسائل العلمية، فكم حصل فيها من منافع كثيرة من غير تشويش ولا قطع عن مقصودها، وهذا من الحكمة»[1].



(١) «الرياض الناضرة» (٢٢/ ١٣٧).

كلما زادت التربية زاد الحق

قال تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾.

«وفهم من هذه الآية أنه كلما ازدادت التربية ازداد الحق، وكذلك من تولى تربية الإنسان في دينه ودنياه تربية صالحة غير الأبوين فإن له على من رباه حق التربية»[(١)].

«وفي هذا دليل على أن كل من له عليك حق تربية بقيام بمؤنة نفقة وكسوة وغيرها أن له حقا عليك بالإحسان والبر والدعاء، وأعلى من ذلك من له حق عليك بتربية عقلك وروحك تربية علمية تهذيبية أن له الحق الأكبر عليك، وهذا من جملة فضائل أهل العلم المعلمين العاملين، ومن حقوقهم على الناس، فإنهم ربما فاقوا في

(١) التفسير (ص٥٩٠).

هذه التربية تربية الوالدين بأضعاف مضاعفة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»[1].



(١) «تيسير اللطيف المنان» (٣/ ٦٣).

«اعلم وفقك الله وعلمك ما لم تكن تعلم من العلوم النافعة أن الفقهاء الذين اعتنوا بكتب الأحكام والفقه وتأليفها وترتيبها أحسنوا على الناس إحسانا عظيما بما رتبوه وقربوه لهم من العلم، حيث حصروا أجناس المسائل الدينية وأنواعها بأبواب وفصول تجمع شملها وتضم متفرقاتها وتقرب بعيدها وتسهلها على المعلمين والمتعلمين وتكفيهم المؤنة الشديدة في تتبعها من مظانها التي لا يكاد يصل إليها إلا الأفراد من المبرزين في العلم.

فاعتنى الفقهاء فجمعوا مثلا أحكام الصلاة في أبواب وفصول، كل باب وفصل جمعوا فيه من الأحكام المتفرقة في نصوص الكتاب والسنة والأقيسة الصحيحة، وهكذا الزكاة والصيام وبقية العبادات وأبواب المعاملات والتبرعات والمواريث والأنكحة وتوابعها والجنايات

وتوابعها، فقربوا البعيد وجمعوا المتفرقات وسهلوا الشديد، فلهم بذلك الفضل الأكبر واليد البيضاء والشكر والدعاء من جميع المنتفعين بهذا التعليم الذي يسره الله على أيديهم وبمساعيهم المشكورة وأياديهم المبرورة.

فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين أفضل الجزاء، ورفع الله درجاتهم وضاعف لهم الأجور وغفر لهم القصور، وعلى المنتفعين أن يشكروا الله على هذا التيسير الذي أجراه الله على أيديهم وبسببهم، ويحمدوه على هذه النعمة الكبرى وغيرها، فإنه أهل الثناء، والحمد والنعم كلها منه، أسبابها ومسبباتها، فهذا التنبيه يفيدنا معرفة أقدار أهل العلم، وشكرهم على ما عملوا مع الأمة، والعناية بهذه التعاليم الجميلة والتقريبات التي كفت طالب العلم عن عناء ومجهود كبير»[1].



(١) «مجموع الفوائد واقتناص الأوابد» (٢١/ ١٧٩).

حقوق أهل العلم

«أعظم الحقوق الواجبة بعد حق الرسول: حقوق العلماء المعلمين الذين هم الواسطة بين الرسول وبين أمته في تبليغ دينه وبيان شريعته، الذين لولاهم لكان الناس كالبهائم، حقوقهم على الأمة أعظم من حق الآباء والأمهات، فإنهم ربوا أرواح العباد وقلوبهم بالعلوم النافعة والمعارف الصحيحة، وهم هداة الأمة في أصول دينهم وفروعه، وهم المرجوع إليهم في أمور العبادات، بهم قام الكتاب والسنة، وبهم اتضح الحق من الباطل والهدى من الضلال والحلال من الحرام والخير من الشر والصلاح من الفساد.

وهم في ذلك على مراتبهم طبقات بحسب ما قاموا به من العلم والتعليم والنفع الكثير أو القليل، فحقهم على الأمة كبير ومقامهم جليل، فعلى الناس أن يحبوهم ويجلوهم ويوقروهم، ويعترفوا بفضلهم وفواضلهم، ويشكروهم على

ذلك غاية الشكر، ويدعوا لهم سرا وعلنا، ويتقربوا إلى الله بمحبتهم والثناء عليهم، وينشروا محاسنهم، ويغضوا القلب واللسان عن مساويهم التي إذا وجدت اضمحلت في جنب محاسنهم. وعليهم أن ينتهزوا الفرصة في وجودهم، فيغترفوا من معين علمهم، ويسترشدوا بنورهم، ويعملوا جميع ما يقدرون عليه من الأسباب التي تريحهم وتفرغهم لما هم بصدده من مهماتهم التي هي أعظم المهمات على الإطلاق، من تعليم الطلبة المستعدين والتجرد لهم، ومن إرشاد العوام، ومن الفتاوى الصادرة منهم والواردة عليهم، ومن استعدادهم للحكم في قضايا الخلق وفصل خصوماتهم، إلى غير ذلك مما لا يحصى مما هو متوقف عليهم، والناس مضطرون إليهم، وحقوقهم على وجه التفصيل لا يمكن عدها»[1].



(١) «نور البصائر والألباب» (٢٢/ ٣٧٢).

«الفصل الثامن عشر: في واجبات أهل العلم فيما بينهم وفيما يتعلق بالناس.

أما الواجب على أهل العلم من العلماء الكبار ومن دونهم والطلبة فيما بينهم فعلى كل منهم أن يحب للآخر ما يحب لنفسه، وهذا واجب عمومي على جميع المسلمين.

لكن أهل العلم عليهم من هذا الحق أعظم مما على غيرهم لما تميزوا به ولما خصهم الله به، وعلى كل منهم أن يدين لله ويتقرب إليه بمحبته جميع أهل العلم والدين، فإن هذا الحب من أعظم ما يقرب إلى الله، ومن أكبر الطاعات.

وهذا الحب يتبع ما اتصف به الإنسان من الأمور التي يحبها الله ورسوله من العلم والاشتغال به والعمل، فإن نفس الاشتغال بالعلوم الشرعية وتوابعها من أجل

الطاعات، ثم حصول العلم للشخص هو من الأوصاف التي يحب لأجلها، ثم تعليمه للناس وعمله مما يجب أن يحب عليه.

فكل هذه الأمور موجودة في أهل العلم، فلهم من الحق على أهل العلم وعلى غيرهم، وأن يميزوا بهذا عن غيرهم لما لهم من المميزات، وإذا عثر أحدهم وغلط في مسألة علمية تعين ستر ما صدر منه ونصيحته بالتي هي أحسن.

ومن أعظم المحرمات وأشنع المفاسد إشاعة عثراتهم، والقدح فيهم في غلطاتهم، وأقبح من هذا وأقبح: إهدار محاسنهم عند وجود شيء من ذلك.

وربما يكون -وهو الواقع كثيرا- أن الغلطات التي صدرت منهم لهم فيها تأويل سائغ، ولهم اجتهادهم فيه، معذورون والقادح فيهم غير معذور.

وبهذا وأشباهه يظهر لك الفرق بين أهل العلم الناصحين والمنتسبين للعلم من أهل البغي والحسد والمعتدين، فإن أهل العلم الحقيقي قصدهم التعاون على البر والتقوى، والسعي في إعانة بعضهم بعضا في كل ما عاد إلى هذا الأمر، وستر عورات المسلمين، وعدم إشاعة غلطاتهم، والحرص على تنبيههم بكل ما يمكن من الوسائل النافعة، والذب عن أعراض أهل العلم والدين، ولا ريب أن هذا من أفضل القربات.

ثم لو فرض أن ما أخطؤوا فيه أو عثروا ليس لهم فيه تأويل ولا عذر لم يكن من الحق والإنصاف أن تهدر المحاسن، وتمحى حقوقهم الواجبة بهذا الشيء اليسير، كما هو دأب أهل البغي والعدوان، فإن هذا ضرره كبير، وفساده مستطير، أيُّ عالم لم يخطئ؟ وأيُّ حكيم لم يعثر؟

وقد علمت نصوص الكتاب والسنة التي فيها الحث على المحبة والائتلاف، والتحذير من التفرق والاختلاف، وأعظم من يوجه إليهم هذا الأمر أهل العلم والدين، فمتى لزموا هذه الأوامر الشرعية الحكمية تبعهم الناس واستقامت الأحوال، ومتى أخلو بذلك وحل محله البغي والحسد والتباغض والتدابر تبعهم الناس وصاروا أحزابا وشيعا، وصارت الأمور في أطوار التغالب وطلب الانتصار ولو بالباطل، ولم يقفوا على حد محدود، فتفاقم الشر وعظم الخطر، وصار المتولي لكبرها: من كان يرجى منهم قبل ذلك أن يكونوا أول قامع للشر!

وإذا تأملت الواقع رأيت أكثر الأمور على هذا الوجه المحزن، ولكنه مع ذلك يوجد أفراد من أهل العلم والدين ثابتين على الحق، قائمين بالحقوق الواجبة والمستحبة، صابرين على ما نالهم في هذا السبيل من قدح القادح

واعتراض المعترض وعدوان المعتدين، فتجدهم متقربين إلى الله بمحبة أهل العلم والدين، جاعلين محاسنهم وآثارهم وتعليمهم ونفعهم نصب أعينهم، قد أحبوهم لما اتصفوا به وقاموا به من هذه المنافع العظيمة، غير مبالين بما جاء منهم إليهم من القدح والاعتراض، حاملين ذلك على التأويلات المتنوعة ومقيمين لهم الأعذار الممكنة.

وما لم يمكنهم مما نالهم منهم أن يجدوا له محملا عاملوا الله فيهم، فعفوا عنهم لله، راجين أن يكون أجرهم على الله، وعفوا عنهم لما لهم من الحق الذي هو أكبر شفيع لهم، فإن عجزوا عن هذه الدرجة العالية التي لا يكاد يصل إليها إلا الواحد بعد الواحد، نزلوا إلى درجة الإنصاف، وهي اعتبار ما لهم من المحاسن ومقابلتها بالإساءة الصادرة منهم إليهم، ووازنوا بين هذه وهذه، فلابد أن يجدوا جانب الإحسان أرجح من جانب الإساءة،

أو متساويين، أو ترجح الإساءة، وعلى كل حال من هذه الاحتمالات، فيعتبرون ما لهم وما عليهم.

وأما من نزل عن درجة الإنصاف فهو بلا شك ظالم ضار لنفسه، تارك من الواجبات عليه بمقدار ما تعدى من الظلم.

فهذه المراتب الثلاث: مرتبة الكمال ومرتبة الإنصاف ومرتبة الظلم، تميز كل أحوال أهل العلم ومقاديرهم ودرجاتهم، ومن هو القائم بالحقوق ومن هو التارك، والله تعالى هو المعين الموفق»[1].



(١) «الرياض الناضرة» (٢٢/ ١٤٣).

«إذا علم هذا فالواجب على المسلمين عموما وعلى أهل العلم خصوصا أن يسعوا في هذا الأمر ويتحملوا من أجله المشاق، ويبذلوا جهدهم وطاقتهم في حصول التواد وعدم التقاطع والتهاجر، ويرغبوا غيرهم فيه امتثالًا لأمر الله وسعيا في محبوبه، وطلبا للزلفى لديه، فيوطنوا أنفسهم على ما ينالهم من الناس من الأذية القولية والفعلية، مع أنها ستنقلب إن شاء الله راحة ومواصلة دينية...

وأن يحرصوا غاية الحرص على ستر عورات المسلمين وعدم تتبعها، خصوصا ما يصدر من رؤساء الدين والعلماء وطلبة العلم الذين لهم الحق الأكبر على جميع المسلمين بما قاموا به من علم الشرع وتعليمه، الذين لولاهم ما عرف الناس أمر دينهم ومعاملاتهم، فلولاهم لم يعرفوا كيف يصلون ويصومون ويحجون، بل لا يعرفون كيف يبيعون

ويشترون، بل لولاهم لكان الناس كالبهائم لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا، ولا عرفوا حلالا ولا حراما، فالواجب على المسلمين احترامهم وكف الشر عنهم، وقمع من يريدهم بأذى، والتغاضي مما يصدر منهم بستره وعدم نشره؛ لأن نشره فساد عريض»[1].



(١) «رسالة في الحث على اجتماع كلمة المسلمين وذم التفرق والاختلاف» (٢٦/ ٧٣).

قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ ﴾.

«فالله تعالى قد حمل أهل العلم ما لم يحمله الجهال، فيجب عليهم القيام بأعباء ما حملوا، وأن لا يقتدوا بالجهال بالإخلاد إلى البطالة والكسل، وأن لا يقتصروا على مجرد العبادات القاصرة، من أنواع الذكر والصلاة والزكاة والحج والصوم ونحو ذلك من الأمور، التي إذا قام بها غير أهل العلم سلموا ونجوا، وأما أهل العلم فكما أنهم مطالبون بالقيام بما عليهم أنفسهم فإنهم مطالبون أن يعلموا الناس وينبهوهم على ما يحتاجون إليه من أمور دينهم، خصوصًا الأمور الأصولية والتي يكثر وقوعها وأن لا يخشوا الناس بل يخشون ربهم؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ﴾ فتكتمون الحق وتظهرون الباطل

لأجل متاع الدنيا القليل، وهذه الآفات إذا سلم منها العالم فهو من توفيقه وسعادته، بأن يكون همه الاجتهاد في العلم والتعليم، ويعلم أن الله قد استحفظه ما أودعه من العلم واستشهده عليه، وأن يكون خائفا من ربه، ولا يمنعه خوف الناس وخشيتهم من القيام بما هو لازم له، وأن لا يؤثر الدنيا على الدين، كما أن علامة شقاوة العالم أن يكون مخلدا للبطالة، غير قائم بما أمر به ولا مبال بما استحفظ عليه، قد أهمله وأضاعه، قد باع الدين بالدنيا، قد ارتشى في أحكامه، وأخذ المال على فتاويه، ولم يعلّم عباد الله إلا بأجرة وجعالة، فهذا قد من الله عليه بمنة عظيمة كفرها، ودفع حظا جسيما محروما منه غيره، فنسألك اللهم علما نافعا وعملا متقبلا، وأن ترزقنا العفو والعافية من كل بلاء يا كريم»[١].



(١) «التفسير» (ص٢٧٢).

بل نقذف بالحق

قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾.

«أي مضمحل فانٍ، وهذا عام في جميع المسائل الدينية، لا يورد مبطل شبهة عقلية ولا نقلية في إحقاق باطل ورد حق إلا وفي أدلة الله من القواطع العقلية والنقلية ما يذهب ذلك القول الباطل ويقمعه، فإذا هو متبين بطلانه لكل أحد، وهذا يتبين باستقراء المسائل مسألة مسألة فإنك تجدها كذلك»[1].



(١) «التفسير» (ص٦٨١).

«اعلم أنه ينبغي للمعلم أن يفتح للمتعلمين باب البحث والمراجعة والانتقاد[1] في المسائل العلمية، فإن في ذلك من المصالح الدينية ما لا يدخل تحت الحصر.

فمنها: أن ذلك من باب التعاون على البر والتقوى؛ لأن مصالح الدارين لا تتم إلا بالتعاون عليها، فالمسائل العلمية لا تتم إلا بذلك، وهي بدونه في غاية النقص.

ومنها: أن ذلك يوجب لهم التهذب والتدرب على المعارضة والاستدلال والترجيح والتضعيف، فتتقد بذلك أفكارهم ويحصل لهم ملكة يقتدرون بها على الإيراد والجواب، فبالامتحان تصقل الأذهان.

ومنها: أن في إهمال المعلم لهذا وجبل المتعلمين على تلقي جميع ما يقوله بالقبول وعدم المعارضة له فيما

(١) في الأصل: الانتقاء، ولعل الصواب ما أثبت.

تحققوا وظنوا أو شكوا فيه = فيه غلق لباب الفائدة للمعلم والمتعلم: أما المتعلم فظاهر، فإنه إذا لم يعارض ويبحث لم يهتد إلى الصواب إلا في المسائل الواضحة البسيطة، وأما المسائل التي تحتاج إلى تحرير وتقرير وجواب وإيراد فبابها عليه مسدود، بل ربما أن المتعلم الذي قد تقررت عند المسألة على صوابها إذا رأى معلمه قد خالف ما عنده ولم تحصل منه المباحثة المذكورة قد يشك فيما علمه أو يعتقد خلاف ما ظنه من الصواب، كما هو الواقع.

وهذه الحالة إذا استمر عليها المتعلمون خمدت أذهانهم وأفكارهم، فيكون الذكي الفطن جامد الذهن خالي القريحة، وذلك أن القوة المفكرة إذا لم تشتغل بالفكر والتذكر وإعمالها فيما هي مهيئة له بطل عملها، بمنزلة بقية الجوارح التي إذا توالى عليها السكون والكسل لم تنفع صاحبها، وأسرع إليها الفساد، فإذا أعملت فيما هي

مستعدة له ترتبت وازدادت وترقت على الدوام.

وأما غلقه لباب الفائدة عن المعلم فأظهر وأظهر، فإنه يسد على نفسه أبوابا وطرقا من الخير قد يمكنه تحصيلها بأسهل شيء، فإنه إذا حصلت المباحثة والمراجعة المذكورة بينه وبين المتعلمين لم يعدم بذلك أن يستفيد منهم علمًا حادثًا أو يتذكر علمًا منسيًّا أو يتضح له ما كان مشكلا أو يتوقف بسبب ذلك عن قول كان يجزم به على خلاف الصواب.

ومنها: أنه يوجب له التيقظ والاحتراز فيما يقوله وينقله، فإنه إذا علم أنه إذا قال قولا أو نقل شيئا لم يعارض ولم يوقف بوجهه، بل يقبل على أي وجه كان، تساهل في ذلك، فقال ونقل ما اتفق له غير مراع للصواب، فيحصل منه الخطأ والغلط شيء كثير، وإذا علم أنه يعارض تنبه وتحرز وتحرى في قوله ونقله بحسب قدرته.

ومنها: أنه يوجب له كثرة المطالعة والبحث والتفتيش والتنقيب والتنبه لكل ما يخطر بباله أنه سيتكلم به.

ومنها: أنه يتحسن بذلك خلقه، ويصير له ملكة لتحمل ما يرد عليه من الاعتراضات، فإن صاحب المنصب العالي على غير الذي يرد غيره تبعا له لا يكاد يتحمل ممن دونه إذا عارضه، بل منصبه يوجب له النفرة من الاعتراض عليه ممن هو مثله أو فوقه فكيف بمن هو دونه، فيخاف عليه لسبب ذلك من رد الحق ونصر الباطل الذي يعلمه، ويغلب هذا السبب ما هو عليه من الديانة كما هو مشاهد.

ولهذا من أدب المعارض لمن هذه حاله إذا استبان للمعارض أن الصواب معه أن لا يكون ذلك بصورة المعارضة، بل بصورة السؤال والاسترشاد والتنبيه على الصواب بألطف الطرق التي توجب القبول، فإذا وطن نفسه على حصول المعارضة وعدم المبالاة بها بل الحرص

عليها، وأوعز للمتعلمين أن يعارضوه بما يرون أنه معارض لقوله تدرَّب بذلك وصار له ملكة قوية على ذلك بحيث لا يبالي بالمعارضة من صغير وكبير، بل قد تراه يقول القول في الملأ جازما به ثم يظهر له عكس ما جزم به فيبديه غير خجل ولا مكترث، بل قصده الوصول إلى الحق والنصيحة للخلق، وحبذا حالة توصل العبد إلى هذا الخُلق الذي لا يلقاه إلا ذو حظ عظيم.

ومنها: أن المعلم إذا هذب المتعلمين على هذه الطريقة الحسنة أو غيرها من الطرق الحسنة صار سببا لاستمرار هذه الحال فيمن تعلم منهم وتربى بهم؛ لأنه يربونه على ما تربوا عليه، فيحصل له من الخير ما لا يعلمه إلا الله.

ومنها: أنه يعرف بذلك مراتبهم ودرجاتهم في التحصيل، ومعرفة مراتب الناس من أهم الأمور خصوصا من له التدبير فيهم، فإنه يحتاج بل يضطر إلى ذلك لأجل عمله

فيهم؛ لأن عمله لا يتم إلا بتنزيلهم منازلهم وإعطاء كل ما يستحقه.

ومنها: أن ذلك يوجب الثقة بقوله؛ لأن من وفق لهذه الحالة وفق للصواب، وأما من سد على نفسه هذا الباب، فقد حصل على غاية الحرمان من العلم والعمل والثواب، والخطر العظيم بسبب سوء الخلق الذي يؤثر ما يؤثر وسوء التعليم وقلة النتيجة وعدم النصيحة التي هي أس التعليم بل أس كل عمل والإعجاب بالنفس وعدم الثقة بقوله وغير ذلك، فنسأل الله توفيقًا يوفقنا إلى الصواب ويصرفنا عن كل شر»[١].



(١) «الحث على اجتماع كلمة المسلمين وذم التفرق والاختلاف» (٢٦/ ٧٩).

مراعاة الحال

قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

«وفي هذه الآية دليل على أنه ينبغي للمتكلم في العلم من محدث ومعلم وواعظ أن يقتدي بربه في تدبيره حال رسوله، كذلك العالم يدبر أمر الخلق، وكلما حدث موجب أو حصل موسم أتى بما يناسب ذلك من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والمواعظ الموافقة لذلك»[١].

«بل ينبغي لكل خاطب ومذكر أن يعتني بهذا المقصود، فيذكر الناس ما يحتاجون إليه بحسب الزمان والمكان والأحوال والأسباب كما كانت خطب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على هذا النمط، لأن المقصود بالخطب أمران: تعليم

(١) «التفسير» (ص٧٧١).

الناس ما ينفعهم من مهمات دينهم، وترغيبهم وترهيبهم بالوعظ عن التقصير بالمأمور والوقوع في المحظور»[1].



(١) «الإرشاد إلى معرفة الأحكام» (٨/ ٧٣).

من أدب المتعلم

قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾.

«وفي هذه الآية أدب لأخذ العلم: أن لا يبادر المتعلم للعلم قبل أن يفرغ المعلم من المسألة التي شرع فيها، فإذا فرغ منها سأله عما أشكل عليه.

وكذلك إذا كان في أول الكلام ما يوجب الرد أو الاستحسان أن لا يبادر برده أو قبوله قبل الفراغ من ذلك الكلام؛ ليتبين ما فيه من حق أو باطل، وليفهمه فهما يتمكن فيه من الكلام فيه على وجه الصواب»[(١)].



(١) «التفسير» (ص١٢٢١).

وهي رسالة نافعة، وحق على كل طالب علم قراءتها.

«فائدة تشتمل على نبذة من آداب المعلمين والمتعلمين.

يتعين على أهل العلم من المعلمين والمتعلمين أن يجعلوا أساس أمرهم الذي يبنون عليه حركاتهم وسكناتهم: الإخلاص الكامل والتقرب إلى الله بهذه العبادة، التي هي أجل العبادات وأكملها وأنفعها وأعمها، ويتفقدوا هذا الأصل الجليل في كل دقيق من أمرهم وجليل، فإن درسوا أو دارسوا، أو بحثوا أو ناظروا، أو أسمعوا أو استمعوا، أو كتبوا أو حفظوا، أو كرروا دروسهم الخاصة، أو راجعوا عليها أو على غيرها الكتب الأخرى، أو جلسوا مجلس علم، أو نقلوا أقدامهم لمجالس العلم، أو اشتروا كتبًا أو ما يعين على العلم، كان الإخلاص لله واحتساب أجره وثوابه ملازمًا لهم، ليصير اشتغالهم كله

قربة وطاعة وسيراً إلى الله وإلى كرامته، وليتحققوا بقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له طريقًا إلى الجنة**»، فكل طريق حسي أو معنوي يسلكه أهل العلم يعين على العلم أو يحصله فإنه داخل في هذا.

ثم بعد هذا يتعين البداءة بالأهم فالأهم من العلوم الشرعية وما يعين عليها من علوم العربية، وتفصيل هذه الجملة معروف، وينبغي أن يسلك أقرب طريق يوصل إلى المطلوب الذي قصده، وأن ينتقي من مصنفات الفن الذي يشتغل فيه أحسنها وأوضحها وأكثرها فائدة، ويجعل جل همه واشتغاله بذلك الكتاب حفظا عند الإمكان، أو دراسة تكرير، بحيث تكون المعاني معقولة له محفوظة، ثم لا يزال يكرر ما مر عليه ويعيده.

وعلى المعلم أن ينظر إلى ذهن المتعلم وقوة استعداده أو ضعفه، فلا يدعه يشتغل بكتاب لا يناسب حاله؛ فإن هذا

من عدم النصح، فإن القليل الذي يفهمه ويعقله خير من الكثير الذي هو عرضة لعدم الفهم والنسيان، وكذلك يلقي إليه من التوضيح والتقرير لدرسه بقدر ما يتبع فهمه لإدراكه، ولا يخلط المسائل بعضها ببعض، ولا ينتقل من نوع من أنواع المسائل إلى نوع آخر حتى يتصور ويحقق السابق، فإنه دَرَكٌ للسابق وليتوفر فهمه على اللاحق.

فأما إذا أدخل المسائل بعضها ببعض قبل فهم المتعلم فإنه سبب لإضاعة الأول وعدم فهم اللاحق، ثم تتزاحم عليه المسائل التي لم يحققها فَيَمَلُّها ويضيق عطنه عن العود إليها، فلا ينبغي أن يهمل هذا الأمر.

وعلى المعلم النصح للمتعلم بكل ما يقدر عليه من التعليم والصبر على عدم إدراكه، وعلى عدم أدبه وجفائه، مع شدة حرصه على ما يقوّمه ويحسن أدبه، لأن المتعلم له حق على المعلم حيث أقبل على العلم الذي ينفعه وينفع

الناس، وحيث توجه للمتعلم دون غيره، وحيث كان ما يحمله من العلم هو عين بضاعة المعلم يحفظها وينميها، ويطلب بها المكاسب الرابحة، فهو الولد الحقيقي للمعلم الوارث له، قال تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾، والمراد وراثة العلم والحكمة.

فالمعلم مثاب مأجور على نفس تعليمه، سواء فهم أو لم يفهم، فإذا فهم ما علمه وانتفع به بنفسه ونفع غيره كان أجراً جارياً للمعلم ما دام ذلك النفع متسلسلاً متصلاً، وهذه تجارة بمثلها يتنافس الموفقون، فعلى المعلم أن يسعى سعياً شديداً في إيجاد هذه التجارة وتنميتها، فهي من عمله وآثار عمله، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَٰرَهُمْ﴾، فما قدموا: ما باشروا عمله، وآثارهم: ما ترتب على أعمالهم من المصالح والمنافع أو

ضدها، وليرغّب المتعلمَ بكل طريق ولا يُملَّه باشتغاله بما يعسر على فهمه من أنواع العلوم ومفرداتها.

وعلى المتعلم أن يوقر معلمه ويتأدب معه حسب ما يقدر عليه لما له من الحق العام والخاص:

أما العام: فإن معلم الخير قد استعد لنفع الخلق بتعليمه وفتواه، فحقه على الناس حق المحسنين، ولا إحسان أعظم وأنفع من إحسان من يرشد الناس لأمر دينهم، ويعلمهم ما جهلوا وينبههم لما عنه غفلوا، ويحصل بسبب ذلك من الخير وانقماع الشر ونشر الدين والمعارف النافعة ما هو أنفع شيء للموجودين ومن أتى من بعدهم من ذريتهم وغيرهم، فلولا العلم كان الناس كالبهائم في ظلمة يتخبطون، وفي غيهم يعمهون، فهو النور الذي يهتدى به في الظلمات، والحياة للقلوب والأرواح والدين والدنيا، والبلد الذي ليس فيه من يبين للناس أمر دينهم ويرشدهم

لما ينتابهم مما هم مضطرون إليه لا خير في الإقامة فيه، فمن كان هذا إحسانه وأثره كيف لا يجب على كل مسلم محبته وتوقيره والقيام بحقوقه؟

وأما حقه الخاص على المتعلم: فَلِمَا بذله من تعليمه والحرص على ما يرشده ويوصله إلى أعلى الدرجات، فليس نفع الآباء والأمهات نظيراً لنفع المعلمين والمربين للناس بصغار العلم قبل كباره، الباذلين نفائس أوقاتهم وصفوة أفكارهم في تفهيم المسترشدين بكل طريق ووسيلة يقدرون عليها، وإذا كان من أحسن إلى الإنسان بهدية مالية ينتفع بها ثم تذهب وتزول له حق كبير على المحسن إليه، فما الظن بهدايا العلم النافع الكثيرة المتنوعة الباقي نفعها ما دام العبد حياً وبعد مماته المتسلسل بحسب حال تلك الهدايا؟ فحينئذ يعرف حقه ويوقره ويحسن الأدب معه، ولا يخرج عن إشارته وإرشاده، وليجلس بين يديه متأدبا

ويظهر غاية حاجته إلى علمه، ويدعو له حاضرا وغائبا، وإذا أتحفه بفائدة وتوضيح لعلم فلا يظهر له أنه قد عرفه قبل ذلك وإن كان عارفا له، بل يصغي إليه إصغاء المتطلب بشدة إلى الفائدة، هذا فيما يعرفه فكيف بما لا يعرفه، ولهذا كان هذا الأدب مستحسنا مع كل أحد في العلوم والمخاطبات في الأمور الدينية والدنيوية.

وإذا أخطأ المعلم في شيء فلينبهه برفق ولطف بحسب المقام، ولا يقول له أخطأت أو ليس الأمر كما تقول، بل يأتي بعبارة لطيفة يدرك بها المعلم خطأه من دون أن يتشوش قلبه، فإن هذا من الحقوق اللازمة، وهو أدعى للوصول إلى الصواب، فإن الرد الذي يصحبه سوء الأدب وانزعاج القلب يمنع من تصور الصواب ومن قصده.

وكما أن هذا لازم على المتعلم، فعلى المعلم إذا أخطأ أن يرجع إلى الحق، ولا يمنعه قولٌ قاله ثم رأى الحق في

خلافه من مراجعة الحق والرجوع إليه، فإن هذا علامة الإنصاف والتواضع للحق، فالواجب اتباع الصواب سواء جاء على يد الصغير أو الكبير.

ومن نعمة الله على المعلم أن يجد من تلاميذه من ينبهه على خطئه ويرشده إلى الصواب، ويزول استمراره على جهله، فهذا يحتاج إلى شكر الله ثم إلى شكر من أجرى الله الهدي على يديه متعلما أو غيره.

ومن أعظم ما يجب على المعلمين أن يقولوا لما لا يعلمونه: الله ورسوله أعلم، وليس هذا بناقص لأقدارهم، بل هذا مما يزيد قدرهم، ويستدل به على دينهم وتحريهم للصواب.

وفي توقفه عما لا يعلم فوائد كثيرة:

منها: أن هذا هو الواجب عليه.

ومنها: أنه إذا توقف وقال: لا أعلم، فما أسرع ما يأتيه

علم ذلك، إما من مراجعته أو مراجعة غيره، فإن المتعلم إذا رأى معلمه توقف جدَّ واجتهد في تحصيل علمها وإتحاف المعلم بها، فما أحسن هذا الأثر.

ومنها: أنه إذا توقف عما لا يعرف كان دليلا على ثقته وإتقانه فيما يجزم به من المسائل، كما أن من عرف منه الإقدام على الكلام فيما لا يعلم كان ذلك داعيا للريب في كل ما يتكلم به، حتى في الأمور الواضحة.

ومنها: أن المعلم إذا رأى منه المتعلمون توقفه عما لا يعلم كان ذلك تعليما لهم وإرشادًا إلى هذه الطريقة الحسنة، والاقتداء بالأحوال والأعمال أبلغ من الاقتداء بالأقوال.

ومما يعين على هذا المطلوب: أن يفتح المعلم للمتعلمين باب المناظرة في المسائل والاحتجاج عليها، وأن يكون القصد واحد وهو اتباع ما رجحته الحجة

والأدلة، فإنه إذا جعل هذا الأمر نصب عينيه وأعينهم تنورت الأفكار وعرفت المآخذ والبراهين واتبعت الحقائق، وكان القصد الأصلي وتوابعه معرفة الحق واتباعه.

والحذر الحذر من التعصب للأقوال والقائلين، وهو أن يجعل القصد من المناظرة نصر القول الذي قاله أو قاله من يعظمه، فإن التعصب مُذْهِبٌ للإخلاص مزيل لبهجة العلم مُعْمٍ للحقائِق فاتح لأبواب الخصام والحقد، كما أن الإنصاف هو زينة العلم، وعنوان الإخلاص والنصح والفلاح.

وليحذر مِنْ طلب العلم للأغراض الفاسدة والمقاصد السيئة، من المباهاة والمماراة والرياء والسمعة، أو أن يكون له وسيلة إلى الأغراض الدنيوية والرئاسة، فليست هذه حال أهل العلم الذين هم أهله في الحقيقة، ومن طلب العلم واستعمله في أغراضه السيئة أو رياء أو سمعة فليس له في الآخرة من خلاق.

ومن أعظم ما يتعين على أهل العلم: الاتصاف بما يدعو إليه العلم من الأخلاق والأعمال والتعليم، فهم أحق الناس بالاتصاف بالأخلاق الجميلة والتخلي من كل خلق رذيل، وهم أولى الناس بالقيام بالواجبات الظاهرة والباطنة وترك المحرمات، لما تميزوا به من العلم والمعارف التي لم تحصل لغيرهم، ولأنهم قدوة الناس في أمورهم، ولأنه يتطرق إليهم من الاعتراض والقوادح عندما يتركون ما يدعو إليه العلم أعظم مما يتطرق إلى غيرهم.

وأيضـاً فكان السلف يستعينون بالعمل على العلم، فإن عمل به استقر ودام ونمى وكثرت بركته، وإن ترك العمل به ذهب أو عدمت بركته، فروح العلم وحياته وقوامه إنما هو بالقيام به عملا وتخلقا وتعليما ونصحا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وينبغي سلوك الطريق النافع عند البحث تعلما وتعليما،

فإذا شرع المعلم في مسألة وضَّحها وأوصلها إلى أفهام المتعلمين بكل ما يقدر عليه من التعبير وضرب الأمثال والتصوير والتحرير، ثم لا ينتقل منها إلى غيرها قبل تحققها وتفهيمها للمتعلمين، ولا يدع المتعلمين يخرجون من الموضوع الذي لم يتم تقريره إلى موضوع آخر حتى يُحْكِمُوه ويفهموه، فإن الخروج من الموضوع إلى غيره قبل الانتهاء منه يشوش الذهن ويحرم الفائدة ويخلط المسائل بعضها ببعض.

وينبغي تعاهد محفوظات المتعلمين ومعلوماتهم بالإعادة والامتحان والحث على المذاكرة والمراجعة وتكرار الدرس، فإن التعلم بمنزلة الغرس للأشجار، والدرس والمذاكرة والإعادة بمنزلة السقي لها وإزالة الأشياء المضرة لتنمو وتزداد على الدوام.

وكما أن على المتعلم توقير معلمه والأدب معه، فكذلك

أقرانه في التعلم معه عليه توقيرهم واحترامهم، فالصحبة في طلب العلم تجمع حقوقًا كثيرة؛ لأن لهم حق الأخوة والصحبة، وحق الاحترام لما قاموا به من الاشتغال بما ينفعهم وينفع الناس وهو الانتماء إلى معلمهم وأنهم بمنزلة أولاده، وحق لنفع بعضهم بعضا.

ولهذا ينبغي أن لا يدع ممكنا يقدر عليه من نفع من يقدر على نفعه منهم من تعليمه ما يجهل، والبحث معه للتعاون على الخير وإرشاده لما فيه نفعه، وينبغي أن يكون اجتماعهم في كل وقت غنيمة يتعلم فيه القاصر ممن هو أعلى منه، ويعلم العارف غير العارف، ويتطارحون المسائل النافعة، وليجعلوا همهم مقصورا على ما هم بصدده، وليحذروا من الاشتغال بالناس والتفتيش عن أحوالهم والعيب لهم، فإنه إثم حاضر.

والمعصية من أهل العلم أعظم من غيرهم، لأن الحجة

عليهم أقوم، ولأن غيرهم يقتدي بهم، ومن كان طبعه الشر من غيرهم جعلهم حجة له، ولأن الاشتغال بالناس يضيع المصالح النافعة والوقت النفيس ويذهب بهجة العلم ونوره.

واعلم أن القناعة باليسير من الرزق والاقتصاد في أمر المعيشة مطلوب من كل أحد، لا سيما المشتغلون بالعلم، فإنه كالمتعين عليهم، لأن العلم وظيفة العمر كله أو معظمه، فمتى زاحمته الأشغال الدنيوية والضروريات حصل النقص بسبب ذلك، والاقتصاد والقناعة من أكبر العوامل لخصر الأشغال الدنيوية وإقبال المتعلم على ما هو بصدده.

ومن آداب العالم والمتعلم: النصح وبث العلوم النافعة بحسب الإمكان، حتى لو تعلم الإنسان مسألة وبثها كان ذلك من بركة العلم، ولأن ثمرات العلم أن يأخذه الناس عنك، فمن شح بعلمه مات علمه بموته، وربما نسيه وهو

حي، كما أن من بث علمه كان له حياة ثانية وحفظًا لما علمه وجازاه الله بحسب عمله.

ومن أهم ما يتعين: السعي في جمع كلمتهم وتأليف القلوب على ذلك، وحسم أسباب الشر والعداوة والبغضاء بينهم، وأن يجعلوا هذا الأمر نصب أعينهم وغاية يسعون إليها بكل طريق، لأن المطلوب واحد والقصد واحد، والمصلحة مشتركة، فيحققون هذا الأمر بمحبة كل من كان من أهل العلم ومن له قدم فيه أو اشتغال أو نفع، ولا يدعون الأغراض الفاسدة تملكهم وتمنعهم من هذا المطلوب الجليل، فيحب بعضهم بعضا، ويذب بعضهم عن بعض، ويبذلون النصيحة لمن رأوه منحرفًا عن الآخر، ويبرهنون على أن الأمور الجزئية التي تدعو إلى ضد المحبة والائتلاف لا تقدم على الأصول الكلية التي فيها جمع الكلمة.

ولا يدعون أعداء العلم من العوام وغيرهم يتمكنون من إفساد ذات بينهم وتفريق كلمتهم، فإن في تحقيق هذا المقصد الجليل والقيام به من المنافع والمصالح ما لا يحصى، ولو لم يكن فيه إلا أن هذا هو الدين الذي حث الشارع عليه بكل طريق، وأعظم من يلزمه القيام به أهله، ولأنه من أعظم الأدلة على النصح والإخلاص الذين هما قطب الدين وروحه، وإن بهذا الوصف يتصف العبد بأنه من أهل العلم الذين هم أهله الذين ورد في الكتاب والسنة من مدحهم والثناء عليهم ما لا يتسع هذا الموضع لذكره، وفيه من تكثير العلم وتوسعة الوصول إليه وتنوع طرقه ما هو مشاهد، فإن أهل العلم إذا كانت طريقتهم واحدة تمكن أن يتعلم بعضهم من بعض، ويعلم بعضهم بعضاً، وإذا كانت كل طائفة منهم منزوية عن الأخرى منحرفة عنها انقطعت الفائدة وحل محلها ضدها، وحصل التعصب

والبغض والتفتيش عن عيوب الطائفة الأخرى وأغلاطها، وكل هذا مناف للدين والعقل، ولما يتعين على أهل العلم ولما كان عليه السلف الصالح.

فالموفق تجده ناصحًا لله بتوحيده والقيام بعبوديته ظاهرًا وباطنًا، بإخلاص واحتساب وتكميل لها بحسب وُسْعِه، ناصحًا لكتاب الله بالإيمان بما اشتمل عليه، والإقبال على تعلمه وتعلم ما يتعلق به ويتفرع عنه من علوم الشريعة كلها، ناصحًا لرسوله بالإيمان بكل ما جاء به من أصول الدين وفروعه وتقديم محبته على كل محبة بعد محبة الله تعالى، وتحقيق متابعته في شرائع الدين الظاهرة والباطنة، ناصحًا لأئمة المسلمين من ولاتهم وعلمائهم ورؤسائهم في محبة الخير لهم والسعي في إعانتهم عليه قولًا وفعلًا، ومحبة اجتماع الرعية على طاعتهم وعدم مخالفتهم الضارة، ناصحًا لعامة المسلمين، يحب لهم ما يحب لنفسه

ويكره لهم ما يكره لنفسه، ويصدق ظاهره باطنه، وأقواله أفعاله، ويدعو إلى هذا الأصل القويم والصراط المستقيم.

فنسأل الله الكريم أن يرزقنا حبه وحب من يحبه، وحب العمل الذي يقربنا إلى حبه، ويهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب، وصلَّى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم»[1].



(١) «مجموع المؤلفات» (٢٦/ ١٧)، وقريب منها ما في «نور البصائر والألباب» (٢٢/ ٣٨٨).

«أصل الأدب لكل منهما: الإخلاص لله تعالى وطلب مرضاته، وقصد إحياء الدين، والاقتداء بسيد المرسلين، فيقصد وجه الله تعالى من تعلمه وتعليمه، وتفهمه وتفهيمه، وفي مطالعته ومدارسته ومراجعته، وأن يزيل عن نفسه وغيره موتَ الجهل وظلمتَه، وينير قلبه ويحييه بالعلم النافع، فإن العلم نور يستضاء به في الظلمات، وحندس الجهالات.

فكلما ازداد علمًا ازداد نوراً بمعرفة الحق من الباطل، والهدى من الضلال، والحلال من الحرام، والصحيح من الفاسد، وعرف مراتب الأشياء وطرق الخير من الشر.

فالعلم عبادة تجمع عدة قربات:

التقرب إلى الله بالاشتغال به، فإن أكثر الأئمة نصوا على تفضيله على أمهات العبادات، وذلك في أوقاتهم الزاهرة

بالعلم، فكيف بهذه الأوقات التي تلاشى فيها أو كاد أن يضمحل. والاستكثار من ميراث النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وأن من سلك طريقـًا يلتمس فيه علمـًا، سهل الله له طريقـًا إلى الجنة. ونفعُهُ واصلٌ لصاحبه ومتعدٍ إلى غيرِه، ونافعٌ لصاحبه حيـًا وميتـًا، وإذا انقطعت الأعمال بالموت وطويت صحيفة العبد، فأهل العلم حسناتهم تتزايد كلما انْتُفِع بإرشادهم، واهْتُدِيَ بأقوالهم وأفعالهم، فحقيق بالعاقل الموفق أن ينفق فيه نفائس أوقاته، وجواهر عمره، وأن يعده ليوم فقره وفاقته.

وينبغي للمعلم: أن يصبر على التعليم، ويبذل جهده في تفهيم كل طالب ما يتحمله ذهنه، ولا يشغله بكثرة القراءات، أو بما لا يتحمله ذهنه، وأن ينشطه على الدوام، ويكثر من سؤاله وامتحانه، ويمرنه على المباحثة وتصوير المسائل، وبيان حكمتها ومآخذها، ومن أي الأصول

الشرعية أخذت، فإن معرفة الأصول والضوابط، واعتبارها بالمسائل والصور، من أنفع طرق التعليم، وكلما ذاق طالب العلم لذة فهمه وحسن مأخذه ازدادت رغبته وقوي فهمه.

وكذلك ينبغي له: أن يوقظ فهمه بكثرة البحث والسؤال والجواب، ويريه السرور إذا أورد عليه سؤالاً أو إشكالاً، أو عارضه بما قاله، فإن القصد النفع والوصول للحق، لا الانتصار للقول الذي يقوله، والمذهب الذي يصير إليه، بل إذا أرشده مَنْ دونه إلى خلل بما قاله شكره عليه، وبحث معه بحثاً يقصد منه الوصول إلى الحقيقة، لا نصر ما هو عليه من الطريقة.

ورجوعُ المعلم إلى فهم المتعلم حيث يكون أقرب إلى الصواب أدل شيء على فضيلته وعلو مرتبته وحسن خلقه وإخلاصه لله تعالى، وإذا لم يصل إلى هذه الحال فليعوّد

نفسه ذلك وليتمرن عليه، فإن المزاولات تعطي الملكات، والتمرينات ترقي صاحبها لدرج الكمالات.

وينبغي للمتعلم: أن يحسن الأدب مع معلمه، ويحمد الله تعالى إذ يسر له من يعلمه من جهله ويحييه من موته ويوقظه من سنته، وينتهز الفرصة كل وقت في الأخذ عنه، ويكثر من الدعاء له حاضرا وغائبا، فإن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من صنع إليكم معروفا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه به فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه».

وأي معروف أعظم من معروف العلم؟ وكل معروف ينقطع إلا معروف العلم والنصح والإرشاد، فكل مسألة اسْتُفِيدَت عن الإنسان فما فوقها، حصل بها نفع لمتعلمها وغيره فإنه معروف وحسنات تجري لصاحبها، وقد أخبرني صاحب لي كان قد أفتى في مسألة في الفرائض وكان شيخه قد توفي أنه رآه في المنام يقرأ في قبره، فقال: المسألة الفلانية

التي أفتيتَ فيها وصلني أجرها. وهذا أمر معروف في الشرع: «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة».

وينبغي أيضا للمتعلم: أن يلطف بالسؤال ويرفق بمعلمه، ولا يسأله في حالة ضجر أو ملل أو غضب، لئلا يتصور خلاف الحق مع تشوش الذهن، وأقل الحالات أن يقع الجواب ناقصًا. وإذا رآه مخطئًا في شيء فلا يصرح بالخطأ، بل ينبهه بصورة متعلم وسائل، فإنه لا يزال كذلك حتى يتضح له الصواب، لأن كثيرا من الناس إذا صرحت له بخطئه بَعُدَ رجوعه وصعب عليه الأمر، إلا من ملك نفسه وخلَّقها بالأخلاق الجميلة، فإنه لا يبالي إذا رُدَّ عليه قوله، وصُرّح له بالخطأ، وهذه الحال من أندر الأحوال، وليس بين العبد وبينها إلا توفيق الله، والاجتهاد في رياضة النفس.

وكذلك ينبغي للمتعلم: إذا دخل في فن من فنون العلم أن ينظر إلى كل باب من أبواب العلم فيحفظ منه الأشياء المهمة وبحوثه النافعة، فيحققها ويتصورها كما ينبغي، ويحرص على مآخذها وما هي مبنية عليه، فإنه لا يزال على هذه الحال حتى يحصل له خير كثير وعلم غزير، ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾، ونسأل الله التوفيق والهداية دائما فإنه قريب مجيب»[(١)].



(١) «الفتاوى السعدية» (٢٤/ ٦٩).



صوت المنبر

خطبة في الحث على العلم

«الحمد لله الذي فاوت بحكمته بين المخلوقات، ورفع المؤمنين الذين أوتوا العلم درجات، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، كما لا تستوي الأنوار والظلمات، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له في ألوهيته وربوبيته وما له من الأسماء الحسنى وكامل الصفات، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله خلاصة الخلق وأكمل البريات، اللهم صل على محمد وعلى آله وأصحابه الذين فضلهم الله بالعلم النافع والأعمال الصالحات، وسلم تسليما.

أما بعد:

أيها الناس، اتقوا الله تعالى وذلك بمعرفة الحق واتباعه، ومعرفة الباطل واجتنابه، واعلموا أن طلب العلم فريضة على كل مسلم مكلف، وأن على العبد أن يعرف الحق والباطل ويتعرف، فإن الله أمر بالتعلم والتدبر والتذكر

والسؤال، والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حث أمته، وقال: «**ألا سألوا إذ لم يعلموا؟ فإنما شفاء العي السؤال**».

ويجب على كل أحد أن يتعلم ما لا يستغني عنه من أمر دينه، وما يحتاجه في عباداته ومعاملاته، ليصير على بينة من إيمانه ويقينه، ويتعلم التوحيد وأصول الإيمان وشرائع الإسلام، فلا يستقيم الفرع إلا إذا تم الأساس واستقام.

وتعلموا من العبادات ما يصلحها ويكملها، وما ينقصها ويفسدها، ومن المعاملات والعقود ما يقومها ويصححها وما يبطلها، فإن الجهل ظلمة والعلم نور وضياء، والجهل داء قاتل، والعلم حياة ودواء وشفاء، وحاجة الناس إلى العلم أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب، ليعرفوا الحلال والحرام وأحكام ربهم في الذهاب والإياب.

وكما أن السعي في طلب العلم الضروري لاتباع الأوامر واجتناب المنهيات من الواجبات، فإنه من أجل القربات

وأفضل الطاعات، والاشتغال به أفضل من نوافل الصوم والصلاة، فإنه من الجهاد في سبيل الله الذي هو رأس العبادات، لا سيما في هذه الأوقات التي كثر فيها الجهل والجهلاء، وقلّ فيها العلم والعلماء، وتداعى بهم داعي الموت والفناء، فالداعي مُلحٌّ لا يقلع، والذاهب منهم لا يرجع، ولا يخلفه من يقوم مقامه فيلتئم الخرق ويقمع.

كذلك يموت العلم بموت حامليه، ويفقد بفقدان أهله ومعلميه، ولا يعرف قدر العالم إلا بعد ارتحاله، ولا تعرف شدة الحاجة إليه إلا بعد انتقاله، لكن أهل العلم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يذهبون وتبقى آثارهم، ويموتون وتحيا أخبارهم، أجسامهم مفقودة، وأفعالهم وصفاتهم ومناقبهم الجميلة في القلوب موجودة، تجردوا طول حياتهم للتعلم والتعليم، وأنفقوا نفائس أعمارهم في نفع الخلق رجاء لرضا الرب الكريم، فشكر الله لهم ولم يزل لأوليائه شكورا، ونشر لهم

لسان صدق بين عباده، محبة وثناء ودعاء لهم وشكورا، مات غيرهم فطويت صحائف حسناتهم، فلا ينقص منها ولا يزاد، والعلماء ما دام ينتفع بعلمهم وآثارهم فهم في أجر ورفعة وازدياد، فإذا حشر الناس اغتبطوا بعلمهم وما أسلفوه يوم يقوم الأشهاد.

فاعرفوا رحمكم الله قدر العلم وآثاره الحميدة، وثابروا على تعلمه والازدياد من أنواره المفيدة، فإنه ينور القلوب والأبصار، ويوجب الأجر والقرب من الملك الغفار، ولازموا مجالس العلم والعلماء، فإن الله يباهي بهم أهل السماء في الملأ الأعلى، ويشهدهم أنه قد غفر لكل حاضر لمجلس الذكر من مستمع ومتعلم، فإنهم القوم لا يشقى بهم جليسهم ولو جاء لحاجة ولم يكن قصده التعلم، فكونوا عالمين أو متعلمين أو مستمعين أو سائلين، ولا تكونوا الخامس المعرض، فتصبحوا هالكين.

كيف يليق بالعبد أن يعرض طول عمره عن حضور الخير وطلبه؟ وهو لا يزال في تعب الدنيا وفي نصبها وفي ذهابه ومنقلبه، يحسن أمور دنياه وهو غافل عن العلم الذي يقربه إلى مولاه؟ فما أخسر عبداً[(١)] في أمور دنياه مِن أعرف الناس وأحذقهم! وفي أمور دينه من أبلدهم وأجهلهم! قد جعل الدنيا أكبر همه ومبلغ علمه وغاية مناه، وأعرض عن العلم الذي فيه صلاح دينه ودنياه.

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾.

بارك الله لي ولكم في القرآن[(٢)].



(١) في الأصل: عبد، ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) «مجموع الخطب» (٢٣/ ٥٥).

خطبة في العلم

«الحمد لله الذي وسع كل شيء رحمة وعلما، وقضى بشرعه على المكلفين، ومن أحسن منه قضاء وحكما، ووفق من اختارهم فأعطاهم إيمانا ويقينا وعلما، وحباهم من فضله عرفانا وفقها وفهما، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله الذي أنزل عليه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ١١٤﴾، اللهم صل على محمد وعلى آله وأصحابه الذين هم أبر الخلق قلوبًا وأغزرهم علومًا وأكملهم حزمًا وعزمًا، وسلم تسليمًا.

أما بعد:

أيها الناس، اتقوا ربكم، واعلموا رحمكم الله أن طلب العلم من أعظم الواجبات، وأنه شفاء للعي، وسلامة من جميع الآفات، وأن من أراد الله به خيرا فقهه في الدين، ومن لم يرد به خيرا أعرض عن طلبه فأصبح من الخاسرين، فإن

الله فرض عليكم فرائض لا تتمكنون من أدائها إلا بتعلم أحكامها، ولا تدركون سلوك الطريق المستقيمة إلا بالتمييز بين حلالها وحرامها، وعلى كل عبد معرفة ما يهتدي به إلى الصواب، وحاجة العبد إلى العلم أعظم من حاجته إلى الطعام والشراب.

ألا وإن الاشتغال به من أجل الطاعات، وأفضل الحسنات المذهبة للسيئات، فإن مذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعلمه وتعليمه ودراسته توجب رضا رب العباد، فقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة**»، وما جلس قوم مجلس ذكر إلا حفتهم الملائكة ونزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده، وقال: «**إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا**»، قالوا: وما رياض الجنة يا رسول الله؟ قال: «**حلق الذكر**»، أفيحسن بالحازم أن يزهد

في رياض فيها من العلوم والمعارف كل زوج بهيج؟ ويستبدل بها مجالس اللغو واللهو وكل أمر مريج؟ أيرضى المؤمن أن يكون في أمر دنياه من أحذق الحاذقين، وفي أمر دينه من الهمج الرعاع الذين لا يعرفون شيئا من أمور الدين؟ لقد اختار الأدنى الخسيس على الحظ الأعلى النفيس، ورضي بمشاركة البهائم وزهد في خصال أهل المكارم.

فوالله لمسألة يسمعها أحدكم فيفهمها ويعمل بها خير له من الدنيا وما فيها، ولحضوركم في مجالس الذكر خير لكم وأنفس من مجالس لا فائدة فيها، فإن العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، العلم يؤنسك في حياتك وفي قبرك ويوم نشرك، والمال يملأ قلبك همًّا وغمًّا ويكون وزرًا على ظهرك، العلم يقربك من رب العالمين، ويوصلك إلى أعلى عليين، ويكون نورًا لك تمشي به في

الظلمات، وحرزًا لك يقيك الآفات والمهلكات، به تفرق بين الكفر والإيمان، وبه تميز بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، وبه تخرج عن أوصاف الأراذل الجهال، وبه تعرف الحق والحرام والحلال، وبه تعرف كيف تصلي وتصوم وتتعبد، وكيف تبيع وتشتري وتعامل وتنكح وتأكل وتشرب وتقوم وتقعد.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾.

بارك الله لي ولكم في القرآن الكريم[١].



(١) «مجموع الخطب» (٢٣/ ٥٨).

خطبة في الحث على العلم

«الحمد لله الذي رفع من أراد به خيرا بالعلم والإيمان، وخذل المعرضين عن الهدى وعرضهم لكل هلاك وهوان، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الكريم المنان، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي كمل الله له الفضائل والحسن والإحسان، اللهم صل وسلم على محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم مدى الزمان. أما بعد:

فيا أيها الناس، اتقوا الله تعالى، واعلموا أن التقوى لا تتم لكم إلا بمعرفة ما يتقى من الكفر والفسوق والعصيان، ولا تستقيم لكم إلا بقيامكم بأصول الإيمان وشرائع الإسلام وحقائق الإحسان، فطلب العلم إذًا من أفرض الفرائض وأوجب الواجبات، فإن عليه المدار في قيام الطاعات وترك المخالفات، فمن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، ومن لم يرد به خيرًا أعرض عن طلب العلم وسماعه، فكان من

الهالكين الجاهلين، فما بالكم معرضين عن العلم، وهو من الفروض الواجبة؟! وما لكم مقبلين على ما يضركم تاركين ما ينفعكم، راضين بالصفقة الخاسرة؟!

قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا**»، قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: «**حلق الذكر**»، فهذه الرياض البهيجة فيها من العلوم من كل زوج كريم، فيها يعرف الله ويهتدى إلى الصراط المستقيم، وفيها يعرف الحلال من الحرام والصلاح من الفساد، وفيها يعرف سبيل الغي والضلال، وسبيل الهدى والرشاد، فكيف تعتاضون عنها بمجالس اللهو وتضييع الأوقات، أو مجالس الشر والفساد؟!

أما إن طلب العلم قربة وثواب عند رب العالمين، والإعراض عنه شر وخسران مبين، فيا أيها المعرضون عن طلب العلم ما هو عذركم عند الله، وأنتم في العافية تتمتعون؟ وماذا يمنعكم منه وأنتم في أرزاق ربكم ترتعون؟

أترضون لأنفسكم أن تكونوا كالبهائم السائمة؟ أتختارون الهوى على الهدى والقلوب منكم ساهية هائمة؟ أتسلكون طرق الجهل وهي الطرق الواهية، وتدعون سبل الهدى وهي السبل الواضحة النافعة؟

أترضى إذا قيل لك: من ربك وما دينك ومن نبيك، لم تُحِر الجواب، وإذا قيل: كيف تصلي وتتعبد أجبت بغير الصواب؟ وكيف تبيع وتشتري وتعامل وأنت لم تعرف الحلال من الحرام؟

أما والله إنها حالة لا يرضاها إلا أشباه الأنعام، فكونوا رحمكم الله متعلمين، فإن لم تفعلوا فاحضروا مجالس العلم مستمعين ومستفيدين، واسألوا أهل العلم مسترشدين متبصرين، فإن لم تفعلوا وأعرضتم عن العلم بالكلية، فقد هلكتم، وكنتم من الخاسرين. أما علمتم أن الاشتغال بالعلم من أجل العبادات، وأفضل الطاعات

والقربات، وموجب لرضا رب الأرض والسماوات، ومجلس علم تجلسه خير لك من الدنيا وما فيها، وفائدة تستفيدها وتنتفع بها لا شيء يزنها ويساويها؟

فاتقوا الله عباد الله، واشتغلوا بما خلقتم له من معرفة الله وعبادته، وسلوا ربكم أن يمدكم بتوفيقه ولطفه وإعانته:

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾.

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم»[1].



(١) «الفواكه الشهية» (٢٣/ ٢٧٨).

«الحمد لله الذي جعل العلوم النافعة رافعة لأهلها إلى أعلى الدرجات، كما أن العلوم الضارة هابطة بهم إلى أسفل الدركات، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له كامل الأسماء والصفات، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أشرف المخلوقات، اللهم صل وسلم على محمد وعلى آله وأصحابه أولي الفضائل والكرامات، أما بعد:

أيها الناس، اتقوا الله وتعلموا ما ينفعكم في الدنيا والدين، قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾، وقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾، ومن دعاء النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهم إني أسألك علما نافعا، وأعوذ بك من علم لا ينفع**»، قسّم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العلم إلى نوعين: نوع نافع لأهله في الدنيا

والدين، ونوع ضار لحامليه وهابط بهم أسفل سافلين. إنما تعرف العلوم والمعارف بآثارها، وبما يترتب عليها من منافعها أو مضارها.

للعلوم النافعة والضارة علامات سأبديها:

العلوم النافعة تطهر القلوب وتزكيها، وتكمل الأخلاق الفاضلة وتنميها، تدعو أهلها إلى الإيمان والرغبة في الخيرات، وتحذرهم من الشرور ومصارع الهلكات، تدعو إلى الإخلاص وخفض الجناح للمؤمنين، وتحمل على التواضع ومحبة الخير لكافة المسلمين.

أما العلوم الضارة: فإنها تدنس النفوس وتدسيها، وتميت الأخلاق الفاضلة ولا تحييها، تحمل أهلها على الكبر والعجب والغرور، وتوجب الأشر والبطر وأنواع الشرور، صاحبها معجب بنفسه وبعقله الناقص المهين، محتقر لأهل الفضل والخير من المؤمنين، مهدر لحق من

له حق وفضل على غيره وعليه، وربما احتقر من سفاهته وسقوط أخلاقه والديه، تعرف هذا النوع من الناس بسيماهم وأحوالهم، وتستدل على سفاهتهم بما يبدو من أفعالهم وأقوالهم، إذا أبدى غيرهم رأيا سديدا قالوا: هذا عقل عتيق سقيم، وقد أعجبوا بعقولهم الفاسدة الداعية لكل خلق ذميم.

أما علموا أن العقول لا تزكو ولا تكمل إلا بالوحي والقرآن، ولا تكون عقولا نافعة حتى تغتذي باليقين والإيمان، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾، وقال: ﴿لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾﴾، وهم أهل العقول الوافية والأخلاق الزاكية، محال أن توجد عقول تقارب عقل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الذي تستمد منه العقول والآراء، أو عقول أصحابه الكمل النجباء، أو عقول السلف والأئمة الصالحين، الذين أصلحوا بعقولهم ودينهم الدنيا والدين،

حسب العقول الكاملة أن تستمد من عقل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وآرائه، وتستنير بنور هديه وتوجيهه وإرشاده.

كيف تستقيم العقول إذا أعرضت عن الرشد والهدى والنور؟ وأقبلت على شهوات الغي والباطل والغرور؟ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾»[١].



(١) «الخطب المنبرية على المناسبات» (٢٣/ ٣٣٠).

خطبة في إصلاح التعليم

«الحمد لله الذي أمرنا أن نأتي البيوت من أبوابها، وأن نسير في طريق مصالحنا بتعرف مناهجها وأسبابها، وأشهد أن لا إله إلا الله الذي أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم من العلوم قليلا ولا كثيرا، وجعل لنا الأسماع والأبصار والأفئدة لنشكرَه بصرفها إلى المعارف النافعة وكان ربك قديرا، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي أرسل إلى جميع الثقلين بشيرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، اللهم صل وسلم على محمد وعلى آله وأصحابه، صلاة وسلاما كاملا كثيرا، أما بعد:

فيا أيها الناس، اتقوا الله بمعرفة الخير واتباعه، ومعرفة الشر وتركه واجتنابه، واعلموا أن العلم هو الأساس الذي يستقيم عليه البنيان، وبه الصلاح والفساد والكمال والنقصان، فليكن تأسيسكم على علوم نافعة صحيحة،

ومعارف قوية صادقة رجيحة، فالعلوم النافعة كلها تنقسم إلى مقاصد ووسائل، فالمقاصد هي الأصول المصلحة للعقائد والأخلاق والفضائل، وهي العلوم الدينية التي بيَّنها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحثَّ عليها، وهي التي لا تنفع العلوم كلها إلا إذا بُنيت عليها.

فوجهوا رحمكم الله وجوهكم ووجوه المتعلمين إلى علوم الدين، واغرسوا هذا الغراس الجميل الباقي في أذهان الناشئين، فبذلك تصلح الأحوال وتزكو الأعمال، وبذلك يتم النجح في الحال والمآل، وبذلك تصلح العقائد والأخلاق، وبه يسير التعليم إلى كل خير وينساق، ولا يتم ذلك إلا بتخير الأساتذة الفضلاء الناصحين، وملاحظتهم التامة لأخلاق المتعلمين، وأن يعلق النجاح والشهادات الراقية لمن جمع بين العلم والدين، فإن العلم الخالي من الدين لا يزكي صاحبه، وإنما هو صنعة من الصناعات،

ولا بد أن يهبط بأصحابه إلى أسفل الدركات، أما رأيتم حالة المدارس المنحرفة حين أهمل فيها تعليم الدين، كيف انساق أهلها إلى الشر والإلحاد؟ وكيف كان الكبر ملأ قلوب أهلها وأعرضوا عن رب العباد، فالعلوم العصرية إذا لم تبن على الدين شرها طويل، وإذا بنيت على الدين أينعت بكل ثمرة جميلة وعمل جليل.

لقد افترى من زعم أن العلوم تقوم بغير الدين، ولقد خاب من توسل بعلوم المادة المحضة وخسر الخسران المبين، أما ترون الماديين كيف انحلت منهم الأخلاق الجميلة؟ وحصلوا على كل خصلة رذيلة، أما ترونهم يسعون خلف أغراض النفوس وخسيس الشهوات؟! أما تشاهدون أحوالهم فوضى قد مرجت فيهم المعنويات والصفات؟! أما ترونهم حين عرفوا شيئًا من علوم الطبيعة أعجبوا بأنفسهم فهم مستكبرون! وحين جاءتهم علوم

الرسل احتقروها وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون، فنعوذ بالله من علم لا ينفع، ونفس لا تشبع، ودعاء لا يجاب ويشفع.

قال تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥ ﴾، ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ٧٩ ﴾.

لقد أرشدنا ربنا إلى الطريقة المثلى في تعليم المتعلمين، وأن نسلك أقرب طريق يوصل المعارف إلى أذهان المشتغلين، فلا نزحمها بكثرة الفنون، فإن الأذهان لا تتحملها، ولا تلقي عليها من المسائل ما لا تطيقها ولا تحفظها، بل تلقي على كل أحد ما يتحمله ذهنه وما يشتاق إليه، ونتعاهده بالدرس والإعادة وكثرة المرور عليه،

فالقليل الثابت الراسخ البنيان، خير من الكثير الذي هو عرضة للزوال والنسيان، فتزاحم العلوم يضيع بعضها بعضًا، وتوجب الكسل والملل، وذلك من أعظم الأضرار والإخلال وشدة الخلل.

فكم من تلميذ على هذا الوصف مكث المدة الطويلة بغير معرفة صحيحة ونجاح، وكم من تلميذ سلك الطريق النافعة ففاز بكل خير وفلاح، فكما أن القوى لا تكلف من الأعمال والأشغال إلا ما تطيق وتستطيع، فكيف بالأذهان الصغيرة إذا زحمت بما لا طاقة لها به وذلك عبء ثقيل مريع: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ﴾»[1].



(١) «الفواكه الشهية» (٢٣/ ٢٧٥).


نبض الفؤاد

(١)

«الدروس على الحال التي تعهد، ولأن وصيتي لك ولابد من جهة الجد والاجتهاد في مطالعة الكتب الفقهية في كل فرصة تغتنمها، خصوصا حين دعت الضرورة، مع أن الاشتغال في الفقه في الدين فيه فوائد عظيمة لا يشاركه فيها شيء:

منها: أنه من أكبر القرب التي يتقرب بها إلى رب العالمين وينال بها رضاه ويدرك بها ثوابه، وقد فضله أكثر العلماء على كل العبادات، فكيف عند أشد الحاجة إليه؟

ومنها: أن من سلك طريقا يلتمس فيه علما -طريقا حسيا أو معنويا- سلك الله وسهل له طريقا إلى الجنة.

ومنها: أن من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين، فمن أعظم

علامات الخير للعبد وأن الله أراد فلاحه وسعادته أن يرزقه السعي في تحصيله ويعلمه إياه.

ومنها: أنه ميراث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فليستقل العبد منه أو يستكثر، فله من إرث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن النيابة عنه بحسب ما حصله.

ومنها: أن جميع الأمور الدينية والدنيوية توزن بميزان العلم، فيبين العلم مراتبها ودرجاتها في الصحة والكمال وضدها، والحق والصدق وضده، وفي جميع أوصاف الأشياء، فكل شيء مضطر إليه.

ومنها: عموم نفعه وشمول ثمرته، فبالاشتغال به خيرٌ نفسه، وحصوله في القلب وفقهه خير آخر، لأنه يخرج القلب من دائرة الجهل إلى دائرة العلم، وهو كالنور بين يدي العبد يعرف به أحوال نفسه وصفة ظاهره وباطنه. ثم من حيث تعديه إلى الغير، فنفس تعليمه للمسترشدين

وإلقاء الدروس على الطالبين والنظر في فتاوى المستفتين، ثم كل من انتفع به في نفسه ونفع به غيره بسببك فهو حسنات جارية لك حيا وميتا.

ثم إن الإسلام لا يقوم إلا بالعلم، فأهل العلم هم القوام به وهم حماته وهم حاملو راياته، وغيرهم تبع لهم.

فأعظمْ بشيء هذه بعض فضائله! وما أحق العبد الموفق أن يبذل فيه مهجته، ويجمل به وقته[1]، ويجعله عدة لآخرته، ويجعله قوته وغذاءه وسلاحه، فنسأله تعالى أن لا يكلنا وإياكم إلى أنفسنا طرفة عين، إنه جواد كريم»[2].

---

(١) في الأصل: «قوته»، ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) «الرسائل» (٢٥/ ٧)، «رسالة إلى الشيخ عبدالله بن عقيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ» في ٢٢ رجب ١٣٥٨هـ.

(٢)

«...ولابد وصيتنا على بالكم، وهي جدك واجتهادك في كل ما تقدر عليه من الإصلاح، خصوصا الإصلاح العلمي، فإنه أعلى فضيلة حصلها العبد وأنفع وأدوم، ولا يمنعك ما ترى من عدم حصول المقصود عاجلا، فإن السعي مع النية الصالحة لابد أن يكون لهما ثمرات، والصبر لابد منه في جميع الحالات، وآفة العمل الضجر والسآمة، وأعظم جالب لهما عدم الاحتساب»[١].

(١) «الرسائل» (٢٥/ ١٠)، «رسالة إلى الشيخ عبدالله بن عقيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ» في ٢٥ شعبان ١٣٥٨هـ.

(٣)

«فقد تناولت بكل سرور كتابكم المؤرخ في غرة هذا الشهر، فتلوته فرحا مستبشرا بما تضمنه من صحتكم وأنسكم، مسرورًا بما شرحته مما يقر العين من عزمكم الجازم -بحول الله وقوته- على الجد والاجتهاد، ومهما استطعتم في المطالعة للكتب الفقهية وبث العلوم الشرعية بحسب الحال وأن الأمور ليس لها من الموانع شيء، فهذا أكبر مُنيتي، وهو الأساس إن شاء الله للسعادة والفلاح.

لله الحمد على نعمه الظاهرة والباطنة، نرجو الله أن يتمها علينا وعليكم بالتوفيق للقيام بها»[(١)].

---

(١) «الرسائل» (٢٥/ ١٤)، «رسالة إلى الشيخ عبدالله بن عقيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ» في ١٥ شوال ١٣٥٨هـ.

(٤)

«الأمل أنك ما تذخر من الجد والاجتهاد وفي نفع من لديك، خصوصا من تظن أهليته للطلب، فهذا هو المكسب الرابح والربح المنمى، جعلكم الله من الدعاة إلى سبيله، آمين»[١].

(١) «الرسائل» (٢٥/ ٤٢)، «رسالة إلى الشيخ عبدالله بن عقيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ» في ١٣ محرم ١٣٦٠هـ.

(٥)

«الإخوان على ترتيب قراياتهم مستمرين، لا نشاط يذكر ولا كسل كثير، وعلى كلٍ فإن الإنسان إذا تسمى بطلب العلم استمر على ترتيبه ولو حصل منه فتور أو حصل له عذر وقصور، فمن سار على الدرب وصل»[١].

(١) «الرسائل» (٢٥/ ٥٩)، «رسالة إلى الشيخ عبدالله بن عقيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ» غرة رجب ١٣٦٢هـ.

(٦)

«الإخوة الطلبة على ترتيبهم السابق، الاستمرار حاصل والتجرد المطلوب ممن لا عذر لهم مفقود، ونرجو الله للجميع أن يسلك بنا وبكم أقرب الطرق الموصلة إلى ما يحبه ويرضاه، وأن ينمي إرادة الخير ويبارك في العمل.

ومن الأسباب المعوقة عن الإقبال بالكلية على العلم من بعض المحصلين: اشتغال كثير منهم بالأسباب الدنيوية؛ لأنها تأخذ جمهور وقت الإنسان، ولهذا نفرح منهم ونغتنم الاستمرار والتشمير ولو على وجه ضعيف، ومع ذلك إذا رأينا اشتغالهم في الوطن هان الأمر على الاشتغال بأوطان أخر تمنع الاشتغال بالعلم بالكلية؛ لأن الذي ينبغي المجاراة على حسب الأصول، وتشجيع كل أحد بحسبه، وتيسير الأمور.

ولهذا في هذه الأوقات يتعين على كل من عنده علم أن ينشره بحسب قدرته، ويلقيه على الناس على اختلاف طبقاتهم من طلبة وعوام وخواص على قدر ما تسنح الفرصة، فلو جرى أهل العلم هذا المجرى لحصل خير كثير، فما لا يدرك كله لا يترك كله.

ولا ينبغي لهم أن يملكهم اليأس ويعتذروا بكسل الناس، وليقتدوا بمعلم الخير وإمام الخلق صلوات الله وسلامه عليه، فإنه ما زال يدعو الخلق في جميع الأوقات، ويكرر الدعوة مع إعراض المدعوين ومعارضتهم، ويدعو إلى سبيل ربه بالتي هي أحسن، ولا يمل ولا يسأم من الدعوة والتعليم، سواء وافق إقبالا من الناس ونجاحا أو صادف نفورا وإعراضا، هذا حاله مع الأعداء المكذبين فكيف لا يكون أهل العلم هكذا مع إخوانهم المسلمين، يساعدون مقبلهم ويذكرون غافلهم ويهدون جاهلهم

ويعرضون الخير على معرضهم، ويعلمون أنه في الإمكان الجمع بين الدين والدنيا، فإن الشارع مبعوث بصلاح الأمرين، بل كل منهما مفتقر إلى الآخر، الدين والعلم وتوابع ذلك هو المقصود، والدنيا ومقاصدها ترتب على الوصل بينهم مصالح عظيمة، وكم فات بالفصل بينهما ومعاداة أحدهما للآخر مضار كثيرة، فنسأل الله تعالى أن يمن علينا وعليكم بالعلم النافع والعمل الصالح، آمين»[١].

(١) «الرسائل» (٢٥/ ٧٠)، «رسالة إلى الشيخ عبدالله بن عقيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ» في ٧ جمادى الأولى ١٣٦٣هـ.

(٧)

«وصلني كتابكم وسرني ما اشتمل عليه من الإفادة عن صحتكم واعتنائكم بالمسائل العلمية، فأرجو الله أن يتم عليكم إحسانه بالثبات على ما يحبه ويرضاه، والازدياد من كل علم نافع وخلق جميل.

أخي، كتابكم هذا وما قبله كررت فيها الاعتذار من كثرة الأسئلة وأننا نسمح بذلك فحيث كان الأمر منك كذلك تعين أن أفيدكم عني وعنكم.

أما من جهتي فأنا مسرور جدا بكثرة أسئلتكم، وممنون منها لأمور:

أولًا: ليس عندي أرغب من البحث في المسائل الدينية والتعلم والتعليم مشافهة ومكاتبة.

ثانيًا: تعرف أن الاشتغال بذلك أفضل الأعمال الصالحة،

خصوصا في هذه الأوقات التي قلَّ فيها الراغب وكاد العلم أن يضمحل، وهو دعامة الدين وأصل الأمور كلها.

ثالثًا: اعلم أن السؤال لمسائل العلم يقع من أحد اثنين: إما ممن وقعت له حادثة في دينه أو عبادته أو معاملته من عامي أو غيره وليس له قصد إلا حل ما نزل به والإفادة عما يعمل به أو عما عمله هل وقع على الصحة والسداد أم على ضد ذلك، فهذا إفتاؤه وإفادته من أفضل الأعمال الصالحة وهي متعينة، ونتيجة ذلك أن يهتدي بحادثته فقط بالهداية الشرعية، وليس ثم نتيجة فوق ذلك، ونعم النتيجة.

ولكن أكمل من ذلك وأعظم أن يقع السؤال من طالب علم مسترشد يريد الاستفادة بنفسه والنفع لغيره، فهذا جوابه وإفادته أعظم بكثير من الأول وأكثر فائدة وثمرة، لأنه مع مشاركته الأول في المقصود الذي ذكرنا يزيد عليه بأنه يتنور فيما أجيب به ويهتدي بمسألته الخاصة وينجر إلى غيرها،

لأن مسائل العلم آخذ بعضها برقاب بعض، ومرتبط بعضها ببعض، ويزيد أيضا أن قصده الفائدة والإفادة، وأن العلم الذي حصل له يسعى على بقائه في ذهنه، وفي إيصاله إلى من أراد الله تعالى نفعه من جهته. فإذا كان الأمر كذلك فلم تحرم أخاك من هذا المقصد الأسنى؟! نرجو الله يجعل عمل الجميع خالصا لوجهه.

وأما من جهتك، فالذي أرى لك الجد والاجتهاد، والاجتهاد في إدراك ولو بعض مقصودك، وانتهاز الفرصة التي ربما تندم بعد فواتها، هذا شرحته لك لئلا يبقى في خاطرك شيء، والله تعالى يتولى توفيقكم وإعانتكم، إنه جواد كريم»[1].

---

(١) «الرسائل» (٢٥/ ٢٥٤)، «رسالة إلى الشيخ عبدالرحمن المقوشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ» في ٢٧ رمضان ١٣٥٨هـ.

(٨)

«المقصود يا إخواني نحن مستعدون وممنونون من التنبيه والانتقاد لما في ذلك من الفوائد والمصالح، فإن من فوائد ذلك: أن هذا هو المشروع وطريقة أهل العلم، وأما السكوت عما ترى فيه انتقادًا أو تراه مشكلًا فليس من طريق أهل العلم.

ومنها: أن فيه فتحا لباب الفائدة في حق المنبه والمنتبه؛ لأن المنتبه إن كان خافيا عليه بُين له أو مشتبها عليه وضح له، وكذلك المنبه، فكم حصل للمعلمين والمؤلفين والكاتبين من المتعلمين والمنتقدين تنبيهات وإزالة إشكالات انتفعوا بها ونفعوا غيرهم.

والحق والعلم إذا وصل إليك ولو من آحاد الطلبة وأدنى المتعلمين فهو نعمة من الله عليك، وهو الحق الذي هو أكبر من كل أحد، الذي يجب على كل أحد الخضوع له

على يد أي شخص كان، فكيف إذا حصل على يد ناصح مسترشد؟

ومنها: أن التنبيه المذكور هو الواجب وهو الدين؛ لأن الدين النصيحة، وأما من رأى الانتقاد والإشكال فلم ينبه قائله من نصيحة ولم يسترشد فإنه ترك النصيحة، وربما شوش على غيره، وهذا خلاف ما يجب على أهل العلم.

ومنها: أن في الانتقادات والاستشكالات والمعارضات تمرين النفس على البحوث النافعة، وتمرينها أيضًا مع ذلك على سرعة قبول الحق والانقياد له، ولكل شيء سبب، ونسأل الله أن يمن علينا وعليكم بسلوك أقرب الطرق الموصلة إليه وإلى ما يحبه ويرضاه»[1].

(١) «الرسائل» (٢٥/ ٣١٥)، «رسالة إلى الشيخين صالح بن مرشد وسليمان بن رويشد رَحِمَهُمَاٱللَّهُ» في ١٧ ذي القعدة ١٣٦٦هـ.

(٩)

«الحقيقة يا أخي كتبكم يكون لها محل عند أخيك بحسب ما نجد لك من الود المبني -ولله الحمد- على ما عرفناه من أوصافكم الجميلة، نرجو الله يتمم لكم الخير وأسبابه، فإن الخير الديني والدنيوي له أبواب وأسباب من وفق لدخولها وسلوكها أفضت له إلى كل خير، وأساسها أمران:

إخلاص العمل لله في كل قول وعمل، وفي كل حركة وسكون.

والاجتهاد في الإحسان إلى الخلق بالعلم والنصح والجاه والبدن والمال والتوجيه إلى مصالح الدين وإلى مصالح الدنيا.

فمن وفق للإخلاص والإحسان بحسب اجتهاده ومقدوره فقد وفق لكل خير، وهانت عليه الطاعات،

وسهلت عليه المشقات، واستحلى كل صعوبة تقربه إلى الله، وأصل ذلك توفيق الله واللجوء إليه، قال شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ٨٨﴾»[1].

(١) «الرسائل» (٢٥/ ٣٢١)، «رسالة إلى الشيخ محمد البصيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ» في ١٣ رجب ١٣٧٢هـ.

(١٠)

«وصلني كتابكم سرتني صحتكم، أسأله تعالى لكم التوفيق لكل خير، وكما ذكرت لك سابقا محبك يُسر بالبحث والسؤال عن الإشكالات لما في ذلك من الفائدة في حق الجميع ... »[١].

---

(١) «الرسائل» (٢٥/ ٣٣٣)، «رسالة إلى الشيخ محمد البصيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ» في ٧ جمادى الأولى ١٣٧٥هـ.

(١١)

«وأعيد عليك أيها الأخ ما ذكرته لك سابقا، وهو أني ما أحب يصير بخاطرك أي سؤال يكون أن لا تذكره؛ لأننا جميعا مشتركون في الفائدة، ربنا يجعل عمل الجميع خالصا لوجهه الكريم، آمين»[1].

(١) «الرسائل» (٢٥/ ٣٣٥)، «رسالة إلى الشيخ محمد البصيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ» في ٢٩ جمادى الآخرة ١٣٧٥هـ.

(١٢)

«في أبرك الساعات وأسرها وصلني كتابكم المحرر غرة هذا الشهر، تلوته مسرورا بصحتكم، راجيا أن يتم عليكم نعمه الدينية والدنيوية، وسررت زيادة بعنايتكم في المسائل العلمية النافعة، فتح الله علينا وعليكم فتوح العارفين.

ولا ريب أن العناية في المسائل العلمية كل وقت وخصوصا في هذا الوقت من أجلّ ما يقرب إلى المولى، ومن أفضل الأعمال الصالحة المثمرة للثمرات العاجلة والآجلة»[١].

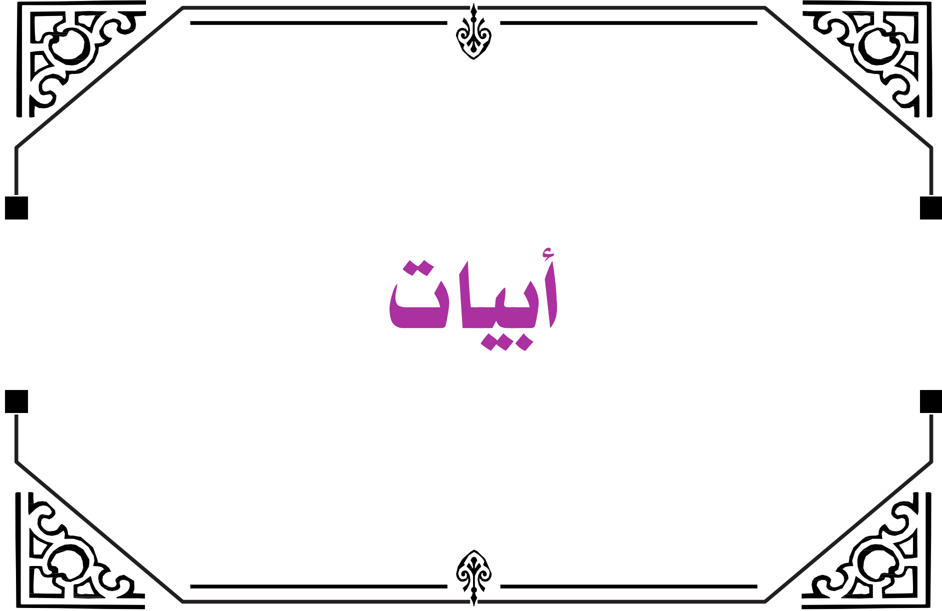
(١) «الرسائل» (٢٥/ ٣٨٦)، «رسالة إلى الشيخ محمد الجراح رَحِمَهُ ٱللَّهُ» في ١٣ جمادى الأولى ١٣٦٨هـ.

(١٣)

«ونحن ممنونون في كل ما يقع لكم من الإشكالات؛ لأنها قد تصير سببا لبحث أمور لم تخطر على البال ومراجعة محالها، وهذا من طرق العلم، فلا تحرمونا ذلك، أرجو الله أن يجعل عملنا وإياكم خالصًا لوجهه»[(١)].



(١) «الفتاوى السعدية» (٢٤/ ٧٢).



أبيات

(١)

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نظم حديث: «**مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل غيث أصاب أرضًا ...**» الحديث، يحث على طلب العلم:

انهض إلى العلم في جد بلا كسلِ
نهوضَ عبد إلى الخيرات يبتدرُ
واصبر على نيله صبر المجد له
فليس يدركه من ليس يصطبرُ
فكم نصوص أتت تثني وتمدحه
للطالبين بها معنى ومعتبرُ
أما نفى الله بين العالمين به
والجاهلين مساواة إذا ذكروا
وقال للمصطفى معْ ما حباه به
ازدد من العلم في علم به بصرُ

وخصـص الله أهـل العلـم يُشـهدهم

علـى العبـادة والتوحيـد فـاعتبروا

وذمُّ خالقِنـــا للجـــاهلين بـــه

في ضـمنه مـدح أهـل العلـم منحصرُ

وفي الحـديث ان يـرد رب الـورى كرمـا

بعبـده الخيـر والمخلـوقُ مفتقـرُ

أعطـــاه فقهـــا بـــدين الله يحملـــه

يـــا حبـــذا نعمـــا تـــأتي وتُنتظـــرُ

أمـــا ســـمعت مثـــالا يستضـــاء بـــه

ويســـتفز ذوي الألبـــاب إن نظـــروا

بـــأن علـــم الهـــدى كالغيـــث ينزلـــه

علـى القلـوب فمنهـا الصـفو والكـدرُ

أمـا الريـاض التـي طابـت فقـد حسـنت

منهـــا الربـــى بنبـــات كلـــه نضـــرُ

فأصـــبح الخلـــق والأنعـــام راتعـــة
بكـــل زوج بهـــيج لـــيس ينحصـــرُ
وبعضـــها ســـبخ ليســـت بقابلـــة
إنبـــات عشـــب بـــه نفـــع ولا ضـــررُ
يكفيـــك بـــالعلم فضـــلا أن صـــاحبه
بـــالعز نـــال العـــلا والخيـــرُ ينتظـــرُ
يكفيـــك بالجهـــل قبحـــا أن صـــاحبه
ينفيـــه عـــن نفســـه والعلـــم يبتكـــرُ
يكفيـــك بالجهـــل قبحـــا أن صـــاحبه
قـــد آثـــر المطلـــب الأدنـــى ويفتخـــرُ
كـــم بـــين مـــن هـــو كســـلان أخـــو ملـــل
فمـــا لـــه عـــن ضـــياع الوقـــت مزدجـــرُ
قـــد اســـتلان فـــراش العجـــز مرتفقـــا
حتـــى أتـــى المضـــعفان[1]: الشـــيب والكـــبرُ

(١) في الأصل: المضعفات، ولعل الصواب ما أثبت.

وبـين مـن هـو ذو شـوق أخـو كلـف
علـى العلـوم فـلا يبـدو لـه الضـجرُ

يرعــى التقــي ويرعــى مــن تحفظــه
أوقاتـــه مـــن ضـــياع كلـــه ضـــررُ

لا يســـــتريح ولا يلـــــوي أعنتـــــه
عـــن الوصـــول إلـــى مطلوبـــه وطـــرُ

تلفيــه طــورا علــى كتــب يطالعهــا
يحلـو لـه مـن جناهـا مـا حـوى الفِكَـرُ

تلهيـــه عـــن روضـــة غنـــاء مزهـــرة
أطيارهـــا غـــردت والمـــاء منهمـــرُ

وباحثـــا تـــارة مـــعْ كـــل منتســـب
يبغــي الرشــاد فــلا يطغــى ويحتقــرُ

واهـــا لـــه رجـــلا فـــردا محاســـنه
بـالحزم والعـزم هـان الصـعب والعسـرُ[1]

(١) «نظم معنى حديث» (٢٦/ ١٨٧).

(٢)

وكان بعض أصحابه معه فتور عن الاجتهاد في طلب العلم فكتب إليه بهذه الأبيات:

سـلام الله يتبعـه سـلامُ
علـى مـن في الضـمير لـه مقـامُ

علـى الحِـب المكـرم مـن ترقَّـى
إلـى أعلـى مكـارم لا تُـرامُ

وفـاق الطـالبين ذكـا وحرصـا
وآدابـا ومعرفـة تسـامُ

وفـارق للقواطـع باشـتياق
ومـن طلـب المكـارم لا يـلامُ

وخَلَّـى[(١)] كـلَّ مشـتغل ينـادي
ألا ليتـي بمنزلـه أُقـامُ[(٢)]

---

(١) في الأصل: وخلاً، ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) في الأصل: أقاموا، ولعل الصواب ما أثبت.

فبعـــد الـــدأب ترضـــى أن تســـاوي

لأربــــــاب البطالــــــة أو تنــــــامُ

وبعـــد صـــعودك الـــدرج العـــوالي

تجـــاذب للنـــزول فـــذا ســـقامُ

فمـــا ألهـــاك عـــن علـــم تســـامى

إلـــى تحصـــيله الغـــرُّ الكـــرامُ؟!

أألهــــــاك اشــــــتغالك بالــــــدنايا

وعـــزَّ عليـــك يـــا هـــذا الفطـــامُ؟!

أم ألهـــــاك اقتـــــداؤك بالكســـــالى

فضـــاع الوقـــت وانفـــرط النظـــامُ؟![1]



(١) نظم وأشعار متنوعة للشيخ (٢٦/ ٢٠٢).

خاتمة

وفي ختام هذا الكتاب أرجو أن أكون وفقت في جمعه وتصنيفه وترتيبه، وما وقع فيه من خطأ وتصحيف ففي مثله يحسن ما قاله السعدي بعد أن كتب له بعض طلابه بوقوع تحريف مطبعي في بعض كتبه، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من جهة التحريف المطبعي ففيه أشياء لكنها بسيطة لا تخلف المعنى إخلافا بينا، أما ما يخلف المعنى فإن الإنسان البصير يعرف المعنى بسياقه»(١).

وقد وقفت للشيخ على فصل طويل معجب عن معاني اسم الله تعالى «اللطيف» أنقل منه ما يتعلق بالعلم وطلبه، ويحسن به ختم الكتاب.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن لطفه بعبده أن يقدر له أن يتربى في ولاية أهل الصلاح والعلم والإيمان وبين أهل الخير،

---

(١) «الرسائل» (٢٥/ ٢٩٤) بتصرف يسير.

يكتسب من أدبهم وتأديبهم، ولينشأ على صلاحهم وإصلاحهم، كما امتن الله على مريم في قوله تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ ﴾ إلى آخر قصتها، ومن ذلك إذا نشأ بين أبوين صالحين وأقارب أتقياء أو في بلد صلاح، أو وفقه الله لمقارنة أهل الخير وصحبتهم، أو لتربية العلماء الربانيين، فإن هذا من أعظم لطفه بعبده ...

ومن **لطف الله بعبده**: أن يسعى لكمال نفسه مع أقرب طريق يوصله إلى ذلك مع وجود غيرها من الطرق التي تبعد عليه، فييسر له التعلم من كتاب أو معلم يكون حصول المقصود به أقرب وأسهل، وكذلك ييسره لعبادة يفعلها بحالة اليسر والسهولة وعدم التعويق مما ينفعه، فهذا من اللطف ...

وأرجو من الله أن يكون ما نحن فيه من هذا النوع، فإن

جنس هذه الفوائد المذكورة في هذه الرسالة قد كانت تعرض لي كثيرا أثناء القراءة لكتاب الله فأتهاون بها ولم أقيدها فيضيع شيء كثير، فلما كان أول يوم من هذا الشهر المبارك أوقع في قلبي أن أقيد ما يمر علي من الفوائد والمعاني المتضحة التي لا أعلم أنها وقعت لي قبل ذلك، فعملت على هذا النمط حتى كان الانتهاء إلى لطف الله كما كان الابتداء بلطف الله بهذه الرسالة اللطيفة»[1].

والحمد لله رب العالمين.



(١) «المواهب الربانية من الآيات القرآنية» (٣/ ٦٠٥).

فهرس تفصيلي

